

القَوَائِدُ الْكُلِّيَّةُ فِي
الْأَشْفِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ
الْمُسْتَنْبَطَةُ مِنْ كِتَابِ الدَّاءِ وَالِدَّاءِ
لِلْإِمَامِ ابْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيِّ

صَنَّفَهُ
فَضِيلَةُ السَّيِّدِ لَكَوْ
أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عُمَيْرُ بْنُ أَبِي السُّعُودِ الْكِلَالِ
كلية الشريعة - جامعة الأزهر

الْحَقَائِقُ الْكُلِّيَّةُ

لِلْإِمَامِ ابْنِ قَيْمٍ الْجُوزِيِّ

٠١٠٣٩١٥٢٧٠

٠١١٤٥٨٠٩٤٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

رقم الإيداع

١٥٩٧٣ / ٢٠٢٦م

الناشر

المكتبة
للإفتاء والبحوث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«بداية التأصيل والقول الجليل»

فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَبَّكَ اللَّهُ كَانَ يَبْكَادُهُ بِصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٧٩ - ٨٠)، (١٤/ ٢٣٠ -

(٢٣١):

«قال الحسن البصري: المراد بالآية العموم؛ أي: لو أخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة من نبي ولا غيره.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين؛ لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان في جحرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال قتادة: وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام، وقال ابن مسعود أيضًا: قوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ يريد جميع الحيوان ممّا دبّ ودرج.

وقال يحيى بن أبي كثير: أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإن الظالم لا يضر إلا بنفسه، فقال أبو هريرة: كذبت، والله الذي لا إله إلا هو، والذي نفسي بيده إن الحباري لتموت هزلاً في وكرها بظلم الظالم،

وقال الثُّمَالِي وَيَحْيَى بن سلام في هذه الآية : يحبس الله المطر فيهلك كل شيء .
وقد مضى في سورة البقرة نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير قوله تعالى :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٩] قالوا : هم الحشرات والبهائم يصيبهم
الجذبُ بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم» اهـ .

وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] .

قال الحافظ ابن كثير في : «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٢ - ١٥٣) :

«ومعنى الآية : بأن النقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي .

قال أبو العالية : مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ ؛ لِأَنَّ صَلَاحَ
الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود : «لَحْدٌ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ
أَهْلِهَا مِنْ أَنْ يَمْطُرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(١) ؛ والسبب في هذا : أَنَّ الحدود إذا أُقيمت
انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا ارتكبت
المعاصي كان سببًا في محاق البركات من السماء والأرض .

ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمن فحكم بهذه الشريعة المطهرة
في ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية فلا يُقبل
إِلَّا الْإِسْلَامُ أَوِ السَّيْفُ ، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ، ويأجوج
ومأجوج قيل للأرض : «أخرجي بركاتك ، فياكل من الرمانة الفئام من الناس ،
ويستظلون بِقَهْفِهَا [بقشرها] ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس»^(٢) .

(١) رواه النسائي في «السنن الصغرى» (٤٩٠٥) ، وابن ماجه (٢٦٣٥) ، وابن حبان في «صحيحه»
(٤٣٩٧) ، وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٤٧٦ - ٣٤٧٨) ، قال : رواه الطبراني
بإسناد حسن ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٥٠) .

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٩٣٧) .

وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ، فلما أقيم العدل كثرت البركات والخير، [قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ ولهذا في الصحيح قال ﷺ: «إِنَّ الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»^(١).

ولهذا قال الإمام أحمد: حدثنا محمد والحسين قالا: حدثنا عوف عن أبي قحذم قال: وَجَدَ رجل في زمان زياد أو ابن زياد، صرّة فيها حبّ، يعني: من بُرّ - قمح - أمثال نوى التمر، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يُعمل فيه بالعدل^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات؛ اختباراً منه ومجازاة على صنيعهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: يرجعون عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. اهـ.

● فساد العباد والبلاد وخراب أمورها وشؤونها بمعصية الله ورسوله ﷺ:

لَمَّا كانت بداية التأصيل والقول الجليل بياناً أن هلاك الدنيا والدين سببه وعلته المعاصي، وهي المرض العضال، ونجاة الأمة في التخلص من هذا الداء وضرورة وحتمية ولزوم السعي في طرق وسبل الاستشفاء، فكان الفصل الثاني من هذا الكتاب بيان الطبيب الفعال القادر على الدواء ولا يقدر عليه إلا هو فقلت:



(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٥١٢).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٧٨٨٩، ٧٦٠٨، ٧٨٦٨).

«افتتاحية الكتاب»

«الله الطبيب وهو الشافي القريب»

روى الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٤١١، ١٧٤٢٣) وأبو داود في «سننه» (٢٤٠٧، ٢٤٠٨) والنسائي في «السنن الصغرى» (٤٨٤٧، ٥٠٩٨)، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١٤٤٥) وصححه، وقال المنذري: وأخرجه الترمذي والنسائي مختصرًا، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، من حديث أبي رُمثة قال: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي فرأى الذي بظهره فقال: يا رسول الله ألا أعالجها لك؟ وفي رواية. ورأيت على كتفه مثل التفاحة، قال أبي: إني طبيب ألا أبطها لك؟ -يعني: يقطعها- وفي رواية: قال أبي: يا رسول الله إني رجل طبيب، وإنَّ أبي طبيب، وأنا من أهل بيت طب، والله ما يخفى علينا من الجسد عرق ولا عظم، فأرني هذه الذي في كتفك، فإن كانت سلعة قطعتها ثم داويتها، وفي رواية: فإنه ليس من إنسان أعلم مني، فقال رسول الله ﷺ: «لست بطبيب، ولكنك رفيق، طبيبها الذي وضعها» وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «طبيبها الله» وفي رواية: «أنت رفيق والله الطبيب»، وفي رواية: «الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذي خلقها».

قال أبو الطيب في: «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٢٧٨/٧):

«والمعنى: أنت ترفق بالمريض وتتلطفه، والله هو يبرئه ويعافيه» اهـ.

وقال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي» (١٣٠/٢)

حديث (٤٤٥):

«قوله ﷺ: «الله الطبيب» أي هو المُداوي الحقيقي بالدواء الشافي، وهذا قاله ﷺ لوالد أبي رُمثة، حين رأى خاتم النبوة فظنه سلعة -يعني ورم- تولدت من الفضلات، فردَّ المصطفى ﷺ كلامه بإخراجه مدرجًا منه إلى غيره، يعني: ليس

هذا علاجًا ، بل كلامك يفتقر إلى العلاج ؛ حيث سَمَّيْتَ نفسك طبيبًا واللَّه هو الطبيب ، وإنَّما أنت رفيق ترفق بالمريض وتتلطف به وله ، فهو من الأسلوب الحكيم في فن البديع ، وذلك لأنَّ الطبيب هو العالم بحقيقة الدواء والداء ، القادر على الصحة والشفاء ، وليس ذلك إِلَّا لِلَّهِ ، لكن تسمية اللّٰه بالطبيب إذا ذكره في حالة الاستشفاء ، نحو : أنت المداوي أنت الطبيب ؛ سائغ ، ولا يُقال : يا طبيب ، كما يُقال يا حكيم ، لأنَّ إطلاقه عليه متوقف على توقيف شرعيّ بدليل « اهـ .

أمَّا الفصل الثالث من هذا الكتاب : بيان قواعد الشفاء الكلية للتعريف بها مجملّة وستأتي مفصّلة بعُدُ .



ذكر القواعد الكلية في الأشفية الشرعية سردًا مجملًا بنصوصها ثمَّ يلحقها البيان

- ١- «القرآن والسنة شفاء للقلب والروح والبدن والجهل والابتداع».
- ٢- «شروط الشفاء الشرعي: قبول المحل، وقوة الفاعل وتأثيره وإلا فلا ينفع ولا ينفع».
- ٣- «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض».
- ٤- «الأشفية الشرعية والأدعية وسائل لها أحكام المقاصد، والمقصود رضی الله، وصفة هذه الوسائل ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وعلى ذلك القرآن والسنة وإجماع الأمة».
- ٥- «جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وأمر الله الشرعي بأن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان».
- ٦- «اجتماع التصديق الجازم بالوعد والوعيد، وتخلف العمل مرض عضال، وسببه ضعف العلم واليقين مع غلبة الهوى، وضعف البصيرة والصبر، وشفاءه قوة ذلك المذكور».
- ٧- «لا يوجد في الدنيا والآخرة شرّ وداء ومرض وفساد إلا بسبب الذنوب والمعاصي، وإن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان».
- ٨- الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مع اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى».
- ٩- «البر لا يبلَى والذنوب لا يُنسَى».
- ١٠- «حرمان العلم، والضيق في الرزق، ووحشة في القلب، ووحشة لأهل الصلاة والخير، وتعسير للأمور، وظلمة في القلب، ووهن في البدن والقلب،

وحرمان الطاعة، ونقصان العمر ومحو بركته، والجرأة على الحرام فيولد بعضه بعضًا، وضعف إرادة القلب، وتقوية إرادة المعصية وعدم استقباحها، وهوان العاصي على ربه وسقوطه من عينه، وشؤم على نفسه وعلى غيره، وتوريث الذل، وفساد العقل وإطفاء نوره، والطبع والران على القلب، وتوريث اللعنة على صاحبها، وحرمان دعوة الرسول ﷺ ودعوة الملائكة له، وإفساد في الأرض على الحرث والنسل والماء والهواء والزروع والثمار والمساكن، وسبب للخراب والخسف والزلازل، ومحو الغيرة، وذهاب الحياة، وعدم تعظيم الرب سبحانه، ورفع مهابته من قلوب الخلق، ونسيان الله للعبد وتركه، ونسيان المعاصي لنفسه، وضعف السير بالقلب إلى الله والدار الآخرة، أو الإعاقة عن ذلك، وزوال النعم، وحلول النقم، وعدم السكون والطمأنينة مع وجود الخوف والرعب، وصرف القلب عن صحته واستقامته وانحرافه، وعمى بصيرة القلب وطمس نوره وسد طرق العلم، وحجب موارد الهداية، وتصغير النفس وقمعها وتحقيرها وتدسيسها، وكونه في أسر الشيطان وشجن شهوته وقيود هواه، وسقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، واستجلاب موارد الهلاك في دنياه وآخرته، فكل ذلك وغيره هي الثمار العطبة القبيحة المذمومة الكائنة من رحم المعصية.

١١ - «الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق والعمل به تحقيقًا وتنفيذًا، والثاني: البصيرة في الدين، فبهما يكتمل إدراك الحق من الباطل ويتم تنفيذه، ويمنع منهما عمى القلب والبصيرة أو ضعفهما، ومدار المنع على معصية الله».

١٢ - «أصل الذنوب والمعاصي نوعان: ترك مأمور وفعل محظور، وهما اللذان ابتلى الله بهما أبوي الجن والإنس، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطن في القلوب، وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه، وإن كان كل حق لخلقته فهو متضمن لحقه، لكن سُمي حقًا للخلق؛ لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم».

١٣ - «المعاصي القلبية: الختم على القلوب والأسماع والغشاوة على

الأبصار، والأففال على القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرّين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضاً على مرض، وإركاسها بحيث تبقى منكوسة، والتثييط عن الطاعة والإقعاد عنها، وجعل القلب أصم لا يسمع الحق، وأبكم لا ينطق به، وأعمى لا يراه، وخسف القلب، ومسح القلب، ومكر الله بالماكر، وحجاب القلب عن الرب، والمعيشة الضنك، والخروج عن الصراط المستقيم».

١٤ - «وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يُقال: إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرِفَ وَيُعْبَدَ وَيُوحَّدَ وَلَا يَعْصَى، وَيَكُونَ الدِّينَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَالطَّاعَةَ كُلَّهَا لِلَّهِ وَالدَّعْوَةَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ١٥]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرُ: أَنْ يُعْرِفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ».

١٥ - «من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع والكمال المطلق من جميع الوجوه، والعبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحق، مع غاية الذل، وهذا تمام العبودية».

١٦ - «القدوس اسم من أسمائه الحسنی، وهو ما وصف نفسه بكل كمال ونزه نفسه عن كل نقص، ومن أشدّ الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإنّ المسيء به الظن هو خلاف كماله المقدس، وظنّ بما يناقض أسمائه وصفاته العُلى، وهذا قدح في الألوهية عظيم».

١٦ - تابع، وقاعدة متفرعة منها:

«القدری والجبري والمؤول والمُحرف والنافي لاستوائه على عرشه سبحانه

وصفاته العلى، ومن جعل الله في كل مكان، ومن نفى إرسال الرسل، ومن جعل لله صاحبة ولدا، ما قدروا الله حق قدره، وجعلوا قدسيته سبحانه، ونسبوه إلى ما لا يليق بجلاله وعظمته.

١٧- «لسوء الخاتمة أسباب، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الانكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة، والإقدام على معاصي الله ﷻ والجرأة عليها، وقد يغلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فسلك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره، وأرسل حُجْبَهُ، فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجعت فيه موعظة، أمّا من استقام ظاهره وصلح باطنه، سرته خاتمته واستبشر بما يحبه الله ويرضاه».

١٨- «أكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات، مقدمات بين يدي التحريم».

١٩- «الله نور السموات والأرض، ونوره القرآن، يحيي به الموتى، ويهتدي به الضلال، ويستشفى به المرضى، مرضى القلوب والأبدان، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء».

٢٠- «الْعَمَى عَمَى الْعَيْنِ، وَالْعَمَةُ عَمَى الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةُ الْمُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]».

٢١- «حُبِّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ».

٢٢- «بُغْضُكَ لِلشَّيْءِ، يُعْمِي وَيُصِمُّ».

٢٣- «بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان».

٢٤- «حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، فالمحبة لله من لوازم العبودية وموجباتها ومقتضياتها، والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وخاصة التعبد الحب مع الخضوع والانقياد والذل للمحبوب، فمن أحب محبوباً وخضع له تعبد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب، ومن لوازم المحبة محبة ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله، فتكون المحبة لله وفي الله وعلى أمر الله ورسوله ﷺ».

٢٥- «الَّذِينَ دِينَان: دين شرعي، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله، أمرًا أو جزاءً، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، وكلاهما صراطه المستقيم سبحانه في أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضاؤه وقدره».

٢٦- «دواعي محبة الله: الجمال والجلال المطلق، ولكمال نعيم القلب: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه، وكمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار قربه والوصول إليه بكل شيء، والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها بغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يوالِيهم بمحبته لهم».

٢٧- «ألا سألوا إذ لم يعلموا؟! فإنما شفاء العي السؤال».

٢٨- «مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما: الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها».

٢٩- «لا يكون العبد مُتَحَقِّقًا بِ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إِلَّا بِأَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ، أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» وبُني ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد، التحقيق بما يحبه الله ويرضاه من قول اللسان، والقلب وعمل القلب، والجوارح، ف﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرارها، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها». والحمد لله رب العالمين.

فإذا كان ذلك كذلك، فقد تعيَّن عليَّ بيان مقدمة هذا الكتاب لندخل فيما كتبنا هذا الكتاب من أجله ولا حول ولا قوة إلا بالله.



«مقدمة الكتاب»

الحمد لله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ يَفْضَلِ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: ٥٧، ٥٨]، وقال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال على لسان نبي الله إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، والذي قال ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: ٤١-٤٢]، وقال: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، وقال ﷺ: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَتْهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَبْرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فقد قال شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (١٥/١٥٣):

«وقوله ﷺ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] يقول تعالى ذكره: ونزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يُستشفى به من الجهل ومن الضلالة، ويبصر به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دون غيرهم، لأنَّ المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه، فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجّيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله أنعم بها عليهم» اهـ.

وقال الحافظ المفسر الفقيه عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي في تفسيره: «تفسير القرآن العظيم» (٥/٧٣):

«يقول تعالى مُخْبِرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من خلفه تنزيل من حكيم

حميد، إِنَّهُ: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض من شكّ ونفاق وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكم وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدّقه واتّبعه، فَإِنَّهُ يكون شفاء في حقّه ورحمة، قال قتادة: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إِنَّهُ لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فَإِنَّ اللَّهَ جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين» اهـ.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

فقال أبو عبد الله القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٥):

«ولهم في قوله تعالى وجهان: أحدهما: إذا مرضت بمخالفتي شفاني برحمته، والثاني: إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحق، وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة» اهـ.

وقال ابن كثير في: «تفسيره» (٦/ ٣٨ - ٣٩):

«قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافة إلى نفسه أدبًا، كما قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿وَالْفَاتِحَةُ: ٦، ٧.﴾

فأسند الإنعام إلى الله ﷻ، والغضب حُذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمَرُ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحدٌ غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه» اهـ.

• وقال عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص: ٣٤٣):

«يقول تعالى -مرغبًا الخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم يذكر أوصافه

الحسنة الضرورية للعباد - فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: تعظكم وتذكركم، عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، ﴿وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وهو هذا القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القاذحة في العلم اليقيني، فإنَّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير والرغبة من الشر، ونمت على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلي العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما في القرآن من البراهين والأدلة التي صرَّفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، ممَّا يزيل الشبهة القاذحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صلح القلب من مرضه ورفل بأثواب العافية تبعته الجوارح كلها، فإنَّها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، وقوله تعالى: ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى أجلُّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلَّت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور، ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الذي هو القرآن الذي هو أعظم نعمة ومنَّة وفضل تفضَّل الله به على عباده، فَرَحْمَتُهُ: الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها، فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا ممَّا هو مضمحل زائل عن قريب، وإنَّما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأنَّ ذلك ممَّا يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإنَّ هذا مذموم، كما قال تعالى: ﴿لَا

تَقَرَّحَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿[القصص: ٧٦]﴾، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض -لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]. « اهـ.

● قلت: هذه مقدمة بيان وتمهيد لمضمون هذا الكتاب، من خلال ذكر معاني وتفسير الآيات التي توضح وتكشف لفظة الشفاء في كتاب الله بوجوه البيان المختلفة الحسني والمعنوي.

● ترجمة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ: فهذا الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، أبو عبد الله شمس الدين الزُرْعِيّ الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، الفقيه الحنبلي الأصولي الحافظ الأثري والمفسر والنحوي، الأديب الواعظ الخطيب المفوه اللغوي المجتهد الزاهد السلفي، واسع المعرفة صاحب القلم السيال.

قال الشوكاني في: «البدر الطالع» (١٤٣/٢):

«برع في كل العلوم، وقارن الأقران، واشتهر في الآفاق، وتبحر في معرفة مذاهب السلف، وله من حسن التصرف وعذوبة الكلام الزائدة، وحسن السياق، ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل الأذهان إليه، وتحبه القلوب، وليس له على غير الدليل مَعَوَّل في الغالب، وقد يميل نادراً إلى المذهب الحنبلي الذي نشأ عليه، ولكنه لا يتجاسر على الدفع في وجوه الأدلة بالمحامل الباردة؛ كما يفعله غيره من المتمذهبين، بل لا بد له من مُسْتَد في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصاف، والميل مع الدليل حيث مال، وعدم التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث وطول ذيوله، أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما ينشرح له صدر الرّاغبين في أخذ مذاهبهم بالدليل، وأظنّها سرت إليه بركة ملازمته للشيخ ابن تيمية، إذ غلب عليه حبه.

وبالجملة، فهو أحد من قام بنشر السُّنَّة، وجعلها بينه وبين الآراء المُحدثة أعظم جُنَّة، فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً» اهـ.

وقال ابن رجب الحنبلي في: «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٧) وابن العماد في: «شذرات الذهب» (٦/ ١٦٨):

«ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة، تفقه في المذهب وبرع، ولازم الشيخ ابن تيمية وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يُجَارَى فيه، وبأصول الدين وإليه فيهما المنتهى، والحديث، ومعانيه، وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعبادة وله فيها اليد الطولى والنحو، وله في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى، قال الذهبي: غني بالحديث ومتونه وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه ويُجيد تقريره وتدريسه.

قال ابن رجب: كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ولم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله، ولا زمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وكان الفضلاء يُعظمونه ويتتلمذون له، قال القاضي بُرْهان الدين الزُرْعِي عنه: ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه ودرّس بالصدرية، وأمّ بالجوزية مدة طويله، وكتب بخطه ما يُوصف كثرة، توفي سنة (٧٥١هـ) رحمه الله تعالى» اهـ.

وذكر ابن رجب الحنبلي من تصانيف ابن القيم: «تهذيب سنن أبي داود» وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة مُجلد، وكتاب: «سفر الهجرتين وباب السعادتين»، «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وهو كتاب جليل القدر، و«عقد محكم الأجبّاء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى ربّ السماء»، و«شرح أسماء الكتاب العزيز»، و«زاد المسافرين إلى منازل السعداء في خاتم الأنبياء»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد»، وهو كتاب عظيم جدّاً و«جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام» وبيان أحاديثها وعللها و«بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل»، و«نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول»، و«إعلام الموقعين عن ربّ

العالمين»، و«بدائع الفوائد»، و«الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي القصيدة النونية في السُّنة تبلغ ستة آلاف بيت، و«الصواعق المرسلّة على الجهمية والمُعظّلة»، و«روضة المحبين ونزهة المشتاقين»، و«الداء والدواء»، و«تحفة الودود في أحكام المولود»، و«مفتاح السعادة»، و«اجتماع الجيوش الإسلامية على عزو الفرقة الجهمية»، و«مصائد الشيطان» وهو «إغاثة اللفهان»، و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، و«رفع اليدين في الصلاة»، و«نكاح المحرم»، و«تفضيل مكة على المدينة»، و«فضل العلماء»، و«عدة الصابرين»، و«الكبائر»، و«تارك الصلاة»، و«نور المؤمن وحياته»، و«حكم إغمام هلال رمضان»، و«التحرير فيما يحل ويحرم من التحرير»، و«جوابات عابدي الصلبان وأنّ ما هم عليه دين الشيطان»، و«بطلان الكيمياء من أربعين وجهًا»، و«الفرق بين الخلّة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه»، و«الفتح القدسي»، و«التحفة المكية»، و«أمثال القرآن»، «شرح الأسماء الحسنى»، «إيمان القرآن»، و«المسائل الطرابُلسية»، و«الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم»، و«كتاب الطاعون»، و«الروح»، و«الفوائد»، و«إغاثة اللفهان في حكم طلاق الغضبان»، و«شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل»، و«هداية الحيارى من اليهود والنصارى»، و«الإيجاز»، و«تدبير الرياسة في القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة»، و«تفسير الفاتحة»، و«حرمة السماع»، و«ربيع الأبرار في الصلاة على النَّبيِّ المختار»، و«عقد حكم الإخاء»، و«الفروسية المحمّدية»، و«الصبر والسكن»، «معاني الأدوات والحروف»، و«مقتضى السياسة في شرح نُكت الحماسة»، و«المنار المنيف في الحديث الصحيح والضعيف»، و«المورد الصّافي والظّل الوافي»، «الاستدلال على بطلان مُحللي السُّباق والنضال»، و«تحفة النازلين نحو رب العالمين»، و«أحكام أهل الذمة» وغير ذلك من كتب ابن القيم من خلال كتاب: «تسهيل السابلة لثريد معرفة الحنابلة» (٢/ ١١٠٠ - ١١٠٥) رقم (١٧٤٠).

هذه غالب تصانيف ابن قيم الجوزيّة شمس الدين أبي عبد الله الإمام العلّامة حقًا وصدقًا، وقد توسّعت في ذكر كتبه لبيان ما عنده من العلوم والفنون الشرعية،

وشهادة أهل العلم له بالتبحر والتميز في القرآن، والحديث، والفقه وأصول الفقه، وعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، والردَّ على أهل البدع والأهواء، واجتهاده وحرصه على إقامة السنن ونشر هدي رسول الله ﷺ.

بدء الكلام في مُصَنَّفِي هذا:

فمن جملة كتب الحَبْرِ العَلَّامة صاحب القلم السيَّال ابن قيم الجوزية كتابه الجليل: «الداء والدواء» أو: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، فلقد قرأت هذا الكتاب من سنين عدَّة، فوجدت فيه علماً عزيزاً، وفوائد علمية جليلة بل فيه، نَفَسٌ ذو حكمة وفطنة وذكاء علميٍّ، وتأصيل شرعيٍّ، وإمام بأدلة الأحكام من الكتاب والسُّنَّة والإجماع، وشروحات وافية كافية شافية، مع فقه طبيب يعرف الداء والدواء، ويشخِّص المرض، ويدلُّ على كيفية الشفاء من أمراض القلوب، والصدور، والعقول، والأفكار، والخطرات، والهواجس ومصايد ووساوس الشياطين الجنيَّة والإنسية، مع المعرفة بالأمور الدنيوية، وحَدَّة الفهم، وقوة البصيرة والقريحة، وصحة الوعي والإدراك، وسلامة الاستنباط، وحسن التوجُّه إلى المراد والمقصود، فكان كتاباً مُهِمًّا في هذا الباب وكان اسماً على مُسَمَّى حقاً.

سبب تصنيفي لهذا الكتاب:

فمن المعلوم لمن يقرأ كُتُبِي أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي لَا أَكْتُبُ كِتَابًا وَلَا أُسَوِّدُ صَفَحَاتِ الْبَيْضَاءِ إِلَّا فِي أَمْرٍ جَدِيدٍ وَأَطْرُوحُهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا طَالِبُ الْعِلْمِ الشَّغُوفُ بِمَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ، مِنْ أَوَّلِ كِتَابِ كُتُبَتِهِ وَهُوَ: «القواعد والضوابط الفقهية لدماء المرأة الطبيعية، الحيض والاستحاضة والنفاس، أربعون قاعدة في الدماء»؛ وذلك لما وجدت الاضطرابات الكثيرة التي تحدث للنساء؛ لاسيما مع وجود وسائل تنظيم الحمل، فجعلت هذه القواعد مرجعية لهؤلاء النِّسْوَةِ الحَيَارَى، ولا حول ولا قوة إِلَّا بِاللَّهِ، وقد استمر ذلك معي كمنهج في التصنيف إلى يوم النَّاسِ هذا.

وكتابي هذا؛ إِنَّمَا أَرَدْتُ بِهِ جَمَلَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُسَاعِدَةِ وَالْمُهَيِّئَةِ

لشفاء القلوب والصدور والنفوس والمعتقد والفكر المستقيم على أدوية الكتاب والسنة، وذلك لأنَّ التقعيد العلميّ علته: لملمة الفروع في قواعد كلية تنطبق على جميع الجزئيات، فيدخل تحتها كل ما يكون في هذا الشأن، وقد منَّ الله عليّ في كتب كثيرة من كتبي المطبوعة قعدت فيها أكثر من مئتي قاعدة في جملة من العلوم الشرعية، وهذا من فضل الله عليّ ومنه وكرمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فجعلت كتابي هذا تقريباً وتهذيباً وتجميعاً وتأصيلاً وتقعيداً للأشفية الشرعية القائمة على الكتاب والسنة وإجماع المسلمين بفهم السلف الصالحين.

منهجي في كتابة هذا التأليف وصفة تقعيدي العلميّ الاستدلاليّ فيه:

وجعلت ذلك في عدّة محاور:

١- بدأت بقراءة كتاب «الداء والدواء» مرات ثمانية والإمام بمسائله، وفهم المراد والمقصود من المؤلف، والتدبّر في كل فقرة من فقرات الكتاب؛ للوصول إلى ما يعين ويساعد على الهدف من هذا الكتاب، لسلامة ألفاظ ومعاني القواعد ودقتها وفصاحتها.

٢- تلمست الجمل التي نطق بها ابن القيم الإمام بالتقصي والتحقيق والانتقاء والاختيار من مفردات الكلمات في كتابه؛ فما جعلته تقعيداً إنّما كان من خلال قوة الملاحظة والمناسبة والفهم والفقه والتدبّر، وكل جُمْل ابن القيم فيها كل العلم والفصاحة الفائقة.

٣- قد يكون نص القاعدة من خلال ألفاظ الحديث وكلماته، أو نص آية، أو إجماع، وهذا من أفضل ما يكون.

٤- كون نص القاعدة استنباطاً من عندي تبعاً للسياق والمراد منها، وذلك على ضوء الأدلة التابعة لمقصود الكتاب، سواء من آيات وأحاديث الكتاب أو من خارج الكتاب، وتبعاً لأدلة الأحكام في الباب ومن فكرة الكتاب المُقَعَّد له.

٥- أورد ابن القيم عشرات الأحاديث منها الصحيح الثابت، ومنها الضعيف، فلا أذكر في مصنفي هذا إلا الأحاديث الصحيحة.

٦- أذكر شرح قواعدِي هذه من كلام ابن القيم ؛ لأنَّ كلَّ الكتاب بيان لها ، فأخذ من شرحه وانتقى على سبيل الاختصار الوجيز بين الإفراط والتفريط .

٧- قد يذكر ابن القيم الشيء أكثر من مرَّة تأكيداً وتكراراً ، فأجمع ذلك وانتقى الأقوى والأحسن منعاً من إعادة التعميد والتكرار .

٨- في كل تصنيف يوجد فيه فقرات في غاية البيان والتبيان ، وفقرات أقل في القوة والمتانة ، وهذا موجود في كتاب : «الداء والدواء» ، فأرَّص كتابي هذا بأفضل وأقوى ما فيه ، مع الاستعانة من غيره تبعاً لما يحتاجه البحث .

٩- الاستدلال على القواعد بالأصول الثلاثة من القرآن والحديث والإجماع ؛ فإنَّ قوة القاعدة تقوم على أدلة الأحكام ، فإذا كانت ألفاظ القاعدة قوية وبينة ، صار نص هذه القاعدة حجة وبرهاناً ، لا سيَّما لو كانت كلمات القاعدة قليلة ومُعَبَّرَةٌ ومختصرة مثل قانون «ما قل ودلَّ» ؛ «فإنَّ ما قلَّ وكفى خير ممَّا كثر وألهى» ، مع العلم بضرورة زيادة الكلمات إن اقتضى الأمر ذلك لعلَّ إتمام الهدف والغاية من القاعدة ؛ ولترسيخ المعلوم من المنطوق والمفهوم بجملته من هذه المحاور ؛ حتَّى تستقر فوائد الكتاب .

١٠- بدأ هذا الكتاب بسؤال سألَه سائل مُبتلى في زمن عمِّ فيه ما يحدث في يوم النَّاس هذا -مع الفارق في الدرجات- من التبرج والاختلاط والسفور والخنا واشتداد الفتن من العري وكشف العورات وانتشارها كالنَّار في الهشيم ، وكثرة النساء الفاسقات ، وتيسير الفواحش وظهور الكبائر ، والسائل شاب يخشى الله ويحاول بقدر الإمكان الصبر على ما يلقي من ذلك ، مع شدة الغربة والرغبة في العفة ، فدينه يمنعه من الحرام مع وجود الطوام ، وقلبه يهوى ويتمنى ، وقرينه الشيطان يُزَيِّن له ذلك ، فعلم أنَّه مريض يحتاج إلى العلاج .

هذا السؤال المرسل إلى ابن القيم وبسببه كتب هذا الكتاب فكان نص السؤال في أوَّل صفحة فقال : «ما تقول السادة العلماء أئمة الدين -رضي الله عنهم أجمعين- ؛ في رجل ابتلي ببليَّة ، وعلم أنَّها إن استمرَّت به أفسدت عليه دنياه

وأخراه، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقُّدًا وشدةً، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مُبتَلَى، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا مأجورين» اهـ.

فما كان من هذا الإمام في كتابه: «الداء والدواء» إلا أن أجاب بجواب يصل إلى أكثر من ثلاثمائة صفحة، أجابه على سؤاله بعد مئتي صفحة يشخص فيها هذا الداء والمرض العضال ببيان العلل والأسباب ويغوص ويكشف ما في خفايا القلوب والصدور والعقول للوصول إلى الدواء، على ضوء القاعدة الكلية: «الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا وجدت العلة وجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم»، وكذلك القاعدة الثانية: «الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره»، فلكي يُجاب على هذه الفتوى؛ فلا بد من التصور المستقيم المنضبط الفعَّال والنظر إليه من كل زواياه وأبعاده، وكان جوابه عامًّا كليًّا لهذا الداء، الذي شمل كل معصية لله وللرسول، فوسَّع الجواب بكل مبتلى بمخالفة للكتاب والسنة وإجماع المسلمين، ثمَّ أجابه إجابة خاصة في المائة الثالثة من الكتاب.

وهذا منهج أهل الحل والعقد الراسخين في العلم العلماء الربانيين العاملين المعلمين، فكان جوابه لمن قرأه وفهمه وتدبَّره، جوابًا لكل بني آدم من العصاة، فما أمتُّه من ردِّ وجواب وشفاء وحكمة وبصيرة ووعي وإدراك وفقه وفهم، وتعميم كُلي لسؤال مخصوص.

● وهذا الذي سِرَّت به في قواعدي هذه، تركت لفظ السؤال وعممت التقييد؛ على ضوء القاعدة الكلية: «العبرة بعموم لا بخصوص السبب».

وهذا من أجلِّ ما قام به هذا العالم الربَّاني، رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء، فلولاً هؤلاء الربَّانيون لصللنا وهلكنا.

١١- زيادة نقولات وشروحات من كتب التفاسير وكتب شرح السنن وغير ذلك ممَّا يكمل فكرة الكتاب.

١٢- ذكر ابن القيم في «الداء والدواء» عشرات الأحاديث النبوية والآثار

الموقوفة، لم أذكر منها إلا ما يقتضي السياق والبيان في الاستدلال للقواعد وشرحها، وأخذت منها الأقوى والأوفق والأوجز بما قلّ ودلّ.

١٣- كتابي هذا بمثابة تقريب وتهذيب وتلخيص واختصار وتقييد يللم مسائل «الداء والدواء» ويذكر خلاصته وزبدته.

١٤- قد أشرح كل القاعدة واستدلّ لها من خارج كتاب ابن القيم «الداء والدواء» بعد تأصيلها من عنده لتمام المعنى والبيان، إن وجدت لذلك ضرورة وحاجة، ورغبة في ورود الأدلة من الكتاب والسنة عوضاً عن كثرة الكلام الخالي من الدليل، وقد نصصت على كل القواعد في الفهرس، وكذلك في أول كتابي هذا مجملة.

١٥- ثلثا الكتاب عند ابن القيم على الذنوب والمعاصي وأثارها تأصيلاً وتفصيلاً، وعلى إثره سرت في كتابي هذا على ضوئه؛ ليطابق المقال الحال، إذ كتابي فرع لأصل غالبه كذلك فتوجّب البيان.

١٦- قد أضيف حديثاً أو آية بين معكوفتين []، زيادة على نص ابن القيم في كلامه؛ لتمام المعنى وزيادة فائدة لضرورة ذلك تبعاً للسياق المتحتم.

١٧- أضفت ثلاث قواعد من عندي القاعدة (٢١، ٢٢، ٢٣) وكلها تابعة لمقصود الكتاب وسياقه.

ثمّ القاعدة (٢٩) كذلك زيادة مضافة ختمت بها كتابي، والقواعد الأربع خارجة عن كتاب ابن القيم، ولكن داخلية فيه دخول بيان وتكميل وإتمام، والله أعلم بالصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا وقت الدخول في أوّل قاعدة من كتابي هذا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والمُجَنَّبُ من الخلل والزلل ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٧٦].



«قواعد الكتاب وفتح المُقيت الوهاب»

القاعدة الأولى

«القرآن والسُّنَّة شفاء للقلب والروح والبدن والجهل والابتداع»

قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعِجْبِيْ وَيَعْرِىٰ قُلٌ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] فمن هنا في هذه الآية: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ليس للتبعيض فيكون المعنى: آيات من القرآن هي الشافية وغيرها ليست كذلك، بل «من» هاهنا لبيان الجنس؛ فإنَّ القرآن كله شفاء، فتكون كل آية فيه شفاء، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٤٢):

«الرجس: القدر، والوثن: التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة أو حجر ونحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه، فهو كالتمثال، وأصله من وثن الشيء أي: قام في مقامه، وسمي الصنم وثناً، لأنه يُنصب ويركز في مكان فلا يبرح عنه، فيريد: اجتنبوا عبادة الأوثان.

وقال عدي بن حاتم: أتيت النَّبِيَّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال ﷺ: «ألق هذا الوثن عنك»، وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: يا رسول الله! إنا لم نتخذهم أرباباً، قال ﷺ: «بلى، أليس يحلُّون لكم ما حُرِّم عليكم فتحلُّونه، ويحرِّمون عليكم ما أحلَّ لكم فتححرِّمونَه؟»، فقلت: بلى، قال: «تلك عبادتهم»^(١).

(١) رواه الترمذي وحسنه في «سننه» (٣٠٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١١٦/١٠)، والخطيب =

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾، «من» قيل: إنها لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون لا ابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرجس عامة، ثم عيّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم، إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ومن قال إن «من» للتبعية قلب معنى الآية وأفسده اهـ.

قلت: فنفس الحال في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد مرّت في مقدّمة كتابي آيات الشفاء في القرآن وتفسيرها ومعانيها.

وأما من السُّنة: ما رواه البخاري في «صحيحه» (٥٦٧٨) كتاب الطب باب: ما أنزل الله داءً إلّا أنزل له شفاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما أنزل الله داءً، إلّا وأنزل له شفاء» وفي رواية في «سنن أبي داود» (٣٨٥٥) وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/١٤٨) قال صلى الله عليه وآله: «إن الله جعل لكل داء دواء فتداووا، ولا تتداووا بحرام»، والحديثان على سبيل العموم الكلّي للأمراض القلبية والجسدية معاً.

ثم قال ابن حجر: «وفي هذه الأحاديث التقييد بالحلال فلا يجوز التداوي بالحرام».

وفي رواية عند أحمد (٤٢٦٧) وصححه ابن حجر قال صلى الله عليه وآله: «إن الله لم ينزل داءً إلّا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله».

وأما الشفاء من الجهل: فقد رواه أبو داود في «سننه» (٣٣٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/٢٢٨)، من حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر فشجّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟! فإنما شفاء العي السؤال».

= البغدادى في «الفقيه والمتفقه» (٢/٦٦-٦٧)، وأبو عمر بن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» الصحيح (١٣٣٣)، والحاكم في «المستدرک» (٨٥٨٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

قال ابن القيم: «فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاءه السؤال» اهـ، ثم قال: «فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله ﷻ من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أجمع ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد قال: «انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سَفَرَةٍ سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيّفوهم، فلُدِغَ سيد ذلك الحيّ، فسَعَوْا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم: لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط؛ إن سيدنا لدِغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لي جُعلًا، فصالحوهم على قطع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكأنما نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فانطلق يمشي وما به قَلْبَةٌ، فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رَقِيَ: لا نفعل حتى نأتي رسول الله ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فَقَدِمُوا على رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك فقال: «وما يدريك أنها رقية؟»، ثم قال: «قد أصبتم واضربوا لي معكم سهماً»^(١).

فقد أثر هذا الدواء وأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء، ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن اشتكى ألماً، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً اهـ.

قال ابن القيم هذا الشرح في أول كتاب الداء والدواء (ص ٣-٥).

أمّا شفاء الداء من الأبدان: فقد روى البخاري في «صحيحه» (٥٦٨٧)، ومسلم (٢٢١٥) عن عائشة قالت: قال ﷺ: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلّا من السام» قلت: وما السام؟ قال: «الموت».

(١) رواه البخاري (٥٧٣٧)، (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

وروى البخاري في «صحيحه» (٥٦٨١) قال ﷺ: «الشفاء في ثلاثة، في شرطة محجم، أو شربه عسل، أو كيّة نار، وأنهى أمتي عن الكي».

وأحاديث الشفاء من الأبدان موجودة في كل السنن وهي كثيرة، ولكن منهج الداء والدواء خاص بشفاء القلوب والروح والفكر والمعتقد فاكثفت بذلك.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذا معناه القرآن كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٦]، وكان معنى الروح هو القرآن، والآيات يفسر بعضها بعضًا.

• القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض:

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦ / ٤١):

«فقوله تعالى: ﴿رُوحًا﴾ قال الضحاك هو القرآن، وهو قول مالك بن دينار؛ وسمّاه روحًا لأن فيه حياةً من موت الجهل، ويمكن أن يُحمل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآن أيضًا ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ أي: يسألونك من أين لك هذا القرآن، قل إنه من أمر الله أنزله عليّ معجزًا، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض» اهـ.

وقال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٧٢٨):

«قوله: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو هذا القرآن الكريم؛ سمّاه روحًا لأنّ الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم العزيز» اهـ.

قلت: فهو الشفاء الكلّي الذي به تنصلح البلاد والعباد، ولا يكون ذلك إلا بقيام دين الله كتابًا وسنة، وبغير ذلك القيام الحق تنتشر الأمراض والآفات والفتن والبلاء.

ظهور العموم الكلّي في الشفاء أوّل ما بدأ به ابن قيم الجوزية في كتابه الداء

والدواء:

أول ما بدأ به ابن القيم بعد الحمد لله في كتابه هذا قوله ﷺ: «ما أنزل الله داءً

إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً» وهذا بيان ظاهر في عموم الشفاء لكل مرض وداء، ثُمَّ ثَنَّى بِالْقُرْآنِ تَأْكِيدًا وَتَقْرِيرًا فَقَالَ: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وذكر أنَّ «من» هاهنا لبيان الجنس، فشمل ذلك أنَّ شفاء الدين، وشفاء الإيمان، وشفاء القلوب والصدور والعقول إنَّما هو بتطبيق شرع الله بأركانه ودعائمه وحلاله وحرامه: وعليه فهذه القاعدة الكلية الكافية الشافية الجامعة؛ لو أخذ النَّاسُ بها لكفتهم ولا حول ولا قوة إِلَّا بِاللَّهِ.

قال ابن الأثير في: «غريب الحديث والأثر» (٢/ ٤٣٦):

«وفي حديث حسان لما قال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَهْجُوا قَرِيبًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ» فَلَمَّا هَجَاهُمْ قَالَ ﷺ: «هَجَاهُمْ حَسَانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى»^(١)؛ أي: شَفَى الْمُؤْمِنِينَ وَاشْتَفَى هُوَ، وَهُوَ مِنَ الشِّفَاءِ: الْبُرْءُ مِنَ الْمَرَضِ، يُقَالُ شَفَاهُ اللَّهُ يَشْفِيهِ، وَاشْتَفَى افْتَعَلَ مِنْهُ، فَنَقَلَهُ مِنَ شِفَاءِ الْأَجْسَامِ إِلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ» اهـ.



(١) رواه مسلم (٢٤٩٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٤٧).

القاعدة الثانية

«شروط الشفاء الشرعي: قبول المحل، وقوة همّة الفاعل وتأثيره، وإلا فلا ينجع ولا ينفع»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص ٥ - ٦) بعد ذكره لمتانة الشفاء بالقرآن والسنة ونجاعته فقال:

«ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطن له وهو: أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يُستشفَى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عُدِمَ تأثيرها؛ فقد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع يمنع من اقتضاء أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفس فعالة وهمّة مؤثرة؛ أثر في إزالة الداء.

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إمّا لضعفه في نفسه، -بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان- وإمّا لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرّخو جدًّا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإمّا لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، والظلم، وزين القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها، كما في: «مستدرک الحاكم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه»^(١).

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٣٤٧٩)، وقال: حديث غريب، والحاكم في «المستدرک» (١٨١٧)، =

فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوّته، وكذلك أكل الحرام يُبطل قوّته ويضعفها، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ طِيبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَهُ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ: الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُدّي بالحرام، فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ»^{(١)؟!}

وذكر أحمد في «كتاب الزهد»: «أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله ﷻ إلى نبيّهم أن أخبرهم: إنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفًا قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشدّ غضبي عليكم؟ ولن تزدادوا مني إلا بعدًا»^(٢).

• يكفي للدعاء بالشفاء مع البرّ ما يكفي الطعام من الملح

وقال أبو ذر: «يكفي من الدّعاء مع البرّ، ما يكفي الطعام من الملح»^(٣) اهـ.

قلت: والمعلوم من الدين بالضرورة للمشتغلين بالعلم، أن الأحكام الشرعية منها الحكم التكليفي: الواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه، والمباح، ومنها الحكم الوضعي، ومنه: الشرط والعلة والسبب والمانع، والصحيح

= وصححه وقال: حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد أهل البصرة وحسنه المنذري، وحسنه بحديث أحمد في «المسند» (٦٦٥٥)، وصححه مثله أحمد شاكر في «المسند» عن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتهم الله ﷻ أيّها النَّاسُ فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنّ الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل».

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (١٣)، وليس عند أحمد في كتابه «الزهد».

(٣) رواه أحمد في «كتاب الزهد» (٧٨٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٣١٩)، وصححه الحاكم.

والفاسد، وعليه، فلا بد من شروط لقبول الدعاء وتأثير الشفاء والتداوي بالقرآن والسُّنة، و«الشرط ما يلزم من عدمه العدم» فمن صلى بدون طهارة لا تُقبل صلاته ولو أتى بكل أركانها وواجباتها وسُننها، لأنه لم يأت بشرطها لأنها صلاة فاسدة باطلة غير صحيحة؛ لوجود مانع منعها من القبول، وكذلك الشفاء الشرعي له علل وأسباب وشروط، والمانع: «ما يلزم من وجوده العدم»، فهي منظومة شرعية لا تتخلف بل مطردة مستمرة، فعند غياب الوعي والبصيرة وعدم الفقه والفهم يحدث الخلل العقدي.



القاعدة الثالثة

«الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض»

روى البخاري في «صحيحه» (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة إنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي».

وروى الترمذي في: «سننه» (٢١٣٩) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في «سننه» (٤٠٢٢) والحاكم في «المستدرک» (١٨١٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وصححه المنذري في «الترغيب» (٢٤٦٦) عن سلمان الفارسي وثوبان قالا: قال رسول الله ﷺ: «ولا يَرُدُّ القضاء إِلَّا الدعاء، ولا يزيد في العمر إِلَّا البرّ، وإنَّ الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه».

وروى ابن ماجه في «سننه» (٣٨٢٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨) والترمذي (٣٣٧٣)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

وروى الحاكم في «المستدرک» (١٨١٢) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٤٦١) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض».

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص ٧-١٠):

«والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء؛ يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع البلاء ثلاث مقامات: أحدهما: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه، الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيُصاب به العبد، ولكنه قد يخففه وإن كان ضعيفاً، الثالث: أن يقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه، وقد روى الحاكم في «مستدرکه» من حديث

عائشة رضي الله عنها، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغني حذر عن قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لا ينزل، وإنَّ البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»^(١).

وإذا جمع مع الدعاء: حضور القلب وجمعيته بكلّيته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تُقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الربّ، وذلاً وتضرّعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه، رغبة ورهبة، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإنَّ هذا الدعاء لا يكاد يُردّ أبداً، ولا سيّما إنَّ صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنة الإجابة، أو أنَّها متضمنة للاسم الأعظم اهـ.

قلت: قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُحِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ أَسْوَأَ وَبَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَيْلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

قال ابن كثير في: «تفسيره» (٦/ ٧٦):

«يُنَبِّه تعالى أنَّه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وهكذا قال هنا: ﴿أَمَّنْ يُحِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾؛ أي: من الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضورين سواه؟!»

قال الإمام أحمد: حدثنا . . . عن أبي تميمه الهجيمي، عن جابر بن سليم الجهني قال أتيت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله إلام تدعو؟ قال ﷺ: «أدعو

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٨١٣)، وصححه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٤٦٧).

إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ الَّذِي إِذَا مَسَّكَ ضَرَّ فِدَعُوتُهُ كَشَفَ عَنْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَضَلَّتْ بِأَرْضِ فِدَعُوتِهِ رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فِدَعُوتُهُ أَنْبَتَهَا لَكَ» قَالَ: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا، وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ وَأَنْتَ مَبْسُطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ، وَلَوْ أَنَّ تُفْرَغَ مِنْ دُلُوكَ فِي إِنْاءِ الْمُسْتَسْقَى، وَاتَّزَرَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ؛ فَإِنْ أَبَيْتَ فِإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَا يَحِبُّ الْمَخِيلَةَ». اهـ.

قلت: والحديث رواه أحمد في «مسنده» (١٦٥٦٩، ٢٠٥١٤، ٢٣٠٩٨)، ورواه أبو داود في «سننه» (٤٠٨٤) في اللباس ما جاء في إسبال الإزار، والترمذي (٢٧٢١) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٦٩٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢٤٨/٣) رقم (٥٠٨٢) وفي رواية الحاكم بلفظ: «قال: يا محمد إلی ما تدعو؟ فقال: «أدعو إلی الله وحده لا شریک له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وتخلع ما كنت علیه من عبادة حجر لا یضر ولا ینفع ولا یدری من عبد ممَّن لم یعبده».

ثمَّ قال ابن القيم (ص ١٤-١٥):

«والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدّه فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة له، والساعد ساعد قويٍّ، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير، فإن كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الدَّاعي لم یجمع بین قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثمَّ مانع من الإجابة، لم یحصل الأثر» اهـ.

• الدعاء معظم العبادة وركنه:

وروى الترمذي في «سننه» (٢٩٦٩) كتاب تفسير القرآن وابن ماجه في «سننه» (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير عن النَّبِيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال: «الدعاء هو العبادة» وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، ثم رواه مرةً أخرى (٣٣٧٢) في كتاب الدعوات.

قال المباركفوري في: «تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي» (٨ / ٣٧٥):

«ومعناه: أنَّ الدعاء معظم العبادة، كما قال ﷺ: «الحجَّ عرفة»^(١)؛ أي:

معظم أركان الحج الوقوف بعرفة، أو المعنى: إنَّ الدعاء هو العبادة سواء استُجيب له أو لم يستجب؛ لأنَّه إظهار العبد العجز، والاحتياج من نفسه، والاعتراف بأنَّ الله تعالى قادر على إجابته، كريم لا بخل له ولا فقر، ولا احتياج له إلى شيء حتى يدخر لنفسه ويمنعه من عباده، وهذه الأشياء هي العبادة بل مُخَّها.

ثم قرأ ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قيل: استدل بالآية على أنَّ الدعاء عبادة، لأنَّه مأمور به، والمأمور به عبادة، وقال القاضي: استشهد بالآية؛ لدلالتها على أنَّ المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب ويكون أتمَّ العبادات، ويقرب من قوله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»^(٢)؛ أي: خالصها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ أي: من دعائي، كذا فسرهُ الحافظ ابن كثير وغيره من المفسرين، وقوله تعالى: ﴿سَيَذَخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين ذليلين، قال الشيخ تاج الدين السبكي: الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره، وأمَّا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فوجه الرِّبط: أنَّ الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة فقد استكبر، وعلى هذا الوعيد إنما هو في حق من ترك الدعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر، وأمَّا ترك الدعاء لمقصود من المقاصد فلا يتوجه إليه الوعيد المذكور، وإن كُنَّا نرى أنَّ ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك؛ لكثرة الآثار الواردة على الحث على الدعاء.

(١) رواه أبو داود في «سننه» (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي في «الصغرى» (٣٠٤٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد في «المسند» (١٨٦٧٧)، ورواه أيضاً الترمذي في كتاب التفسير في «سننه» (٢٩٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في «المستدرک» (٣١٠٠)، وصححه.

(٢) ضعفه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٤٧٠)، ورواه الترمذي في «سننه» (٣٣٧١)، وقال: حديث غريب أي: ضعيف، وقد ذكرته مع بيان ضعفه لتمام السياق.

وقال الطيبي: معنى الحديث أن تُحمل العبادة على المعنى اللغوي؛ إذ الدعاء هو إظهار التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ حيث عبّر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار ووضع عبادتي موضع دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار والهوان اهـ.

● لا يُقبل الدعاء ولا يستجاب إلا بطاعة الله وتقواه والبعد عن محارمه وذلك هو الرشاد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].
قال السعدي في: «تفسيره» (ص ٧١):

«والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قُرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق، فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإنَّ الله قد وعده بالإجابة؛ وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيهِ القولية والفعلية، والإيمان به الواجب للاستجابة؛ فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾؛ أي: يحصل لهم الرشd، الذي هو الهداية والاستقامة للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة؛ لأنَّ الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَفَقَّأْ اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. اهـ.

والفرقان هو: الفيصل بين الحق والباطل، والرشاد والغي، والهدى والضلال.

وروى مسلم في «صحيحه» (٢٧٣٥ / ٩٢) من كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي - وذكر القرطبي

هذا الحديث عند تفسير الآية السابقة من سورة البقرة- عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قِطِيعَةٍ رَحِمَ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الِاسْتَعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبْ لِي، فَيَسْتَحْزِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدَّعَاءَ» يعني ييأس ويقنط، وهذا سوء أدب مع الله وعدم تقدير لحكمة الله تعالى.

وذكر ابن كثير في: «تفسيره» (١/ ٣٢٥) عند نفس الآية: ما رواه الطبري في تفسيره قال: «حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب، حتى تُعَجَّلَ له في الدنيا أو تُدَخَّرَ له في الآخرة، إذا لم يعجل أو يقنط» قال عروة: يا أمّاه كيف عجلته وقنوته؟ قالت: «يقول سألت فلم أعط، ودعوت فلم أجب».

• شروط الدعاء وأركانه المجموعة وفقه المسألة:

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠) عن تفسير الآية:

«فإنَّ إجابة الدعاء لا بد لها من شروط في الداعي، وفي الدعاء، وفي الشيء المدعوب به، فمن شرط الداعي أن يكون عالمًا بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأنَّ الوسائط في قبضته ومسخره بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة، وحضور قلب، فإنَّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ، وأن يكون مُجْتَنِبًا لأكل الحرام، وألا يملَّ من الدعاء، ومن شرط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا، كما قال ﷺ: «مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قِطِيعَةٍ رَحِمَ»^(١)، فيدخل في الإثم كل ما يَأْثُمُ به من الذنوب، ويدخل في الرَّحِمِ جميع حقوق المسلمين ومظالمهم.

قال سهل بن عبد الله التستري: «شروط الدعاء سبعة: أوَّلها التضرُّع، والخوف، والرجاء، والمداومة، والخشوع، والعموم، وأكل الحلال».

(١) حديث صحيح ومَرَّ آنفًا.

وقال ابن عطاء: «إِنَّ للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً؛ فإن وافق أركانه قَوِيٌّ، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرافة والاستكانة والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ».

وقيل: شرائطه أربع: «أولها حفظ القلب عند الوحدة، وحفظ اللسان مع الخلق، وحفظ العين من النظر إلى ما لا يحل، وحفظ البطن عن الحرام».

وقيل: إن مِنْ شَرْطِ الدعاء أن يكون سليماً من اللحن؛ كما أنشد بعضهم:

ينادي رَبَّهُ بِاللَّحْنِ لَيْثٌ كَذَاكَ إِذَا دَعَاهُ لَا يَجِيبُ.

موعظة: وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ قال:

«لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سُنَّتَهُ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدّوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتكم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس».

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لَوْفَ الْبَكَّالِي: «يَا نُوف: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ أَنْ مُرْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بِيوتِي إِلَّا بِقُلُوبٍ طَاهِرَةٍ، وَأَبْصَارٍ خَاشِعَةٍ، وَأَيْدٍ نَقِيَّةٍ، فَإِنِّي لَا أَسْتَجِيبُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، مَا دَامَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِي مَظْلَمَةٌ، يَا نُوف، لَا تَكُونَنَّ شَاعِرًا وَلَا عَرِيفًا^(١) وَلَا شَرِطِيًّا وَلَا جَابِيًّا وَلَا عَشَّارًا، فَإِنَّ دَاوُدَ قَامَ فِي سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: إِنَّهَا سَاعَةٌ لَا يَدْعُو عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ فِيهَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَرِيفًا أَوْ شَرِطِيًّا أَوْ جَابِيًّا أَوْ عَشَّارًا أَوْ صَاحِبَ عَرُطَةٍ -وهي الطنبور-، أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ -وهي الطبل-».

ولا يقل الداعي: اللهم أعطني إن شئت، اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم

(١) الْعَرِيفُ: هُوَ الْقِيمُ بِأُمُورِ الْقَبِيلَةِ أَوِ الْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ يَلِي أُمُورَهُمْ وَيَتَعَرَّفُ الْأَمِيرُ مِنْهُ أَحْوَالَهُمْ، وَالْعَرَافَةُ عَمَلُهُ «النهاية» (٣/ ١٩٧) لابن الأثير.

ارحمني إن شئت، فإن في قوله: «إن شئت» نوع من الاستغناء عن مغفرته وعطائه ورحمته، كقول القائل: إن شئت أن تعطيني كذا فافعل؛ لأنه لا يستعمل هذا إلا مع الغني عنه، وأما المضطر إليه فإنه يعزم في مسأله، ويسأل سؤال فقير مضطر إلى ما سأل، روى الأئمة واللفظ للبخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولنَّ اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مُسْتَكْرَه له»^(١)، وفي «الموطأ» لمالك: «اللهم اغفر لي إن شئت وارحمني إن شئت»^(٢).

قال علماؤنا: قوله ﷺ: «فليعزم المسألة» دليل على أنه ينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله؛ لأنه يدعو كريماً. قال سفيان بن عيينة: «لا يمنع أحد من الدعاء ما يعلمه من نفسه؛ فإن الله قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس، قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾» [الحجر: ٣٦-٣٧].

وعن شهر بن حوشب: أن أم الدرداء قالت له: يا شهر ألا تجد القشعريرة؟ قلت: نعم، قالت: فادع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك.

قال جابر بن عبد الله: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرفت السرور في وجهه، قال جابر: «ما نزل بي أمرٌ مهم غليظ إلا توخَّيتُ تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة» اهـ.

قلت: والحديث رواه أحمد في «مسنده» (١٤٥٦٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٩١)، وسنده صحيح.

● الصلة بين الشفاء الشرعي والدعاء:

لما فصلت القول آنفاً في شروط الدعاء وأركانه وصفته؛ إنما أردت بذلك بيان

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٣٣٨) في كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٨) في الذكر والدعاء باب العزم في الدعاء ولا يقل إن شئت.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٤٩٢) كتاب القرآن ما جاء في الدعاء.

تلك الشروط في الشفاء الذي يأتي بثماره حَذُوا القِذَّةِ بالقِذَّةِ وحَذُوا النَعْلِ بالنَعْلِ، وذلك - كما مر - أنَّ الدعاء من الشفاء، ولذلك نسج ابن القيم الإمام بين آيات القرآن والاستشفاء به وبين الدعاء، متى يقبل ومتى لا يقبل، وكذلك متى يأتي الشفاء ومتى لا يأتي، وكلا الأمرين قائم على الطاعة والمعصية، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وشفاء القلوب والعقول والصدور والأفكار من أجل الأرزاق، كيف لا؟! وصلاح الدين والدنيا إنما يكون بصلاح القلوب والنفوس والأرواح، ولا حول ولا قوة إِلَّا بِاللَّهِ.



القاعدة الرابعة:

«الأسفية الشرعية والأدعية وسائل لها أحكام المقاصد،
والمقصود رضى الله، وصفة هذه الوسائل ترتيب الجزاء على
الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب وعلى ذلك
القرآن والسنة وإجماع الأمة»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص ١٥، وما بعدها):

«فصل: وها هنا سؤال مشهور وهو: أن المدعو به إن كان قد قُدِّرَ لم يكن بُدَّ من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدعُ، وإن لم يكن قد قُدِّرَ لم يقع، سواء سألَه العبد أو لم يسألَه، فظنت طائفة صحة ذلك السؤال فتركت الدعاء [وطلب الشفاء]، وقالت: لا فائدة فيه، وهؤلاء -مع فرض جهلهم وضلالهم- متناقضون، فإن طَرَدَ مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب، فيقال لأحدهم: إن كان الشَّعْبُ والرِّيُّ قد قُدِّرَ لك فلا بُدَّ من وقوعهما أكلت أو لم تأكل، وإن لم يُقَدَّرْ لم يقعَا أكلت أو لم تأكل، وإن كان الولد قد قدر لك فلا بُدَّ منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يُقَدَّرْ ذلك لم يكن؛ فلا حاجة إلى التزوُّج والتسرِّي، وهَلُمَّ جَرًّا، فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟! بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وتكيس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء [وطلب الشفاء] من باب التعبد المحض يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المُتَكَيِّس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمانة على قضاء الحاجة، فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمانة على أن حاجته قد قُضيت، وهذا كما رأينا غيماً أسود بارداً في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر، قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب؛ هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سبباً ألبته، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي، وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب: أن هاهنا قسمًا ثالثًا غير ما سأله السائل وهو: أن هذا المُقَدَّر قُدِّرَ بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يُقَدَّر مجرداً عن سببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهذا كما قُدِّرَ الشبع والري بالأكل والشرب، وقُدِّرَ الولد بالوطء، وقُدِّرَ حصول الزرع بالبذر، وهذا القسم هو الحق، وهو الذي حُرِّمَهُ السائل ولم يُوقِّقْ له.

وحينئذ فالدعاء أقوى الأسباب، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنصر به على عدوه، وكان الدعاء أعظم جنديه، وكان يقول لأصحابه: «لستم تُنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء، إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه».

فمن ألهم الدعاء، فقد أريد به الإجابة؛ فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٢٧)، والترمذي (٣٣٧٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، وأحمد في «المسند» (٩٧١٩).

[١١]، وقوله تعالى: ﴿وَالْوَّاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ونظائره، وتارة يأتي بلام التعليل كقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وتارة تأتي بأداة «كي» التي للتعليل كقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وتارة يأتي بفاء السببية، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وتأتي بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً، كقوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]؛ أي: كراهة أن تقولوا.

وتارة يأتي بفاء السببية، كقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهُمْ﴾ [الشمس: ١٤]، وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَلَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]، ونظائره.

ويأتي تارة بأداة «لما» الدالة على الجزاء كقوله: ﴿فَلَمَّا أَصَفُونَا أَنْفَقْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ونظائره، وتارة يأتي ب«إن» وما عملت فيه، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله في ضد هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وتارة بأداة «لولا» الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها، كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٢٧﴾ لَكُنَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وتارة يأتي ب«لو» الدالة على الشرط، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَاتًا﴾ [النساء: ٦٦].

وبالجملة: فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

وَمَنْ فَقِهَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَتَأَمَّلَهَا حَقَّ التَّأَمُّلِ انْتَفَعَ بِهَا غَايَةَ النِّفْعِ، وَمَنْ يَتَكَلَّمُ عَلَى الْقَدْرِ جَهْلًا مِنْهُ وَعَجْزًا وَتَفْرِيطًا وَإِضَاعَةً فَيَكُونُ تَوَكُّلُهُ عَجْزًا، وَعَجْزُهُ تَوَكُّلًا، بَلِ الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ الَّذِي يَرُدُّ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ، وَيُدْفَعُ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ، وَيُعَارِضُ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ، بَلِ لَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْبَرْدَ وَأَنْوَاعَ الْمَخَافِ وَالْمَحَازِيرِ هِيَ مِنَ الْقَدْرِ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي دَفْعِ الْقَدْرِ بِالْقَدْرِ، وَهَكَذَا مَنْ وَقَّهَ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ رَشْدَهُ، يَدْفَعُ قَدْرَ الْعُقُوبَةِ الْآخِرِيَّةِ بِقَدْرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَهَذَا وَزَانُ الْقَدْرِ الْمَخُوفِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُضَادُّهُ سِوَاهُ، فَرُبُّ الدَّارَيْنِ وَاحِدٌ، وَحُكْمَتُهُ وَاحِدَةٌ، لَا يَنْقَاضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَا يَبْطُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَشْرَفُ الْمَسَائِلِ لِمَنْ عَرَفَ قَدْرَهَا وَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا

اهـ.



القاعدة الخامسة

«جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره وأمر الله الشرعي
بأن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ١٩):

«من فقه المرء أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جرَّبه في نفسه وغيره، وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً، ومن أنفع ما في ذلك: تدبُّر القرآن، فإنه كفيل في ذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبيّنة، ثُمَّ السُّنَّة فإنَّها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهم يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعاین ذلك عياناً.

وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسُّنَّة، ورأيت بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق، ما يدلُّك على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرَّفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر» اهـ.

قلت: كان لشيخ الإسلام كلام في هذا السياق من قبل وهو شيخ ابن القيم،

فقال أبو العباس ابن تيمية في: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٤٧ - ٥٥٠):

«سُئِلَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قول الشيخ عبد القادر: نازعت أقدار الحق بالحق للحق، فأجاب شيخ الإسلام: الحمد لله، جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان، ونزيل الكفر بالإيمان، والبدعة بالسُّنَّة، والمعصية بالطاعة من أنفسنا ومن عندنا، فكل من كفر وفسق أو عصى فعليه أن يتوب، وإن كان ذلك بقدر الله، وعليه أن يأمر غيره

بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان، ويجاهد في سبيل الله، وإن كان ما يعمل من المنكر والكفر والفسوق والعصيان بقدر الله، ليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر، بل يفعل ما أمر الله ورسوله، كما روى مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١)، فأمر النبي ﷺ أن يحرص على ما ينفعه، والذي ينفعه يحتاج إلى منازعة شياطين الإنس والجن، ودفع ما قدر من الشر بما قدره الله من الخير، وعليه مع ذلك أن يستعين بالله فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن يكون عمله خالصاً لله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، وهذا حقيقة قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والذي قبله حقيقة: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور وترك المحذور، وأن يكون مستعيناً بالله على ذلك، وفي عبادة الله وطاعته فيما أمر، إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير، ودفع ما يريده الشيطان، ويسعى فيه من الشر، قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] كما يدفع شر الكفار والفجار الذي في نفوسهم والذي سعوا فيه بالحق، كإعداد القوة ورباط الخيل، وكالدعاء والصدقة اللذين يدفعان البلاء، كما جاء في الحديث: «إن الدعاء والبلاء يلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض»^(٢).

فالشر تارة يكون قد انعقد سببه وخيف فيُدفع وصوله، فيدفع الكفار إذا قصدوا بلاد الإسلام، وتارة قد وجد فيزال وتبدل السيئات بالحسنات، وكل هذا من باب دفع ما قُدر من الشر بما قُدر من الخير، وهذا واجب تارة، ومستحب تارة، فالذي

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٦٦٤/٣٤).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٨١٣)، وصححه وأقر تصحيحه المنذري في: «الترغيب والترهيب» حديث (٢٤٦٧).

ذكره الشيخ عبد القادر هو الذي أمر به الله ورسوله .

والمقصود من ذلك: أن كثيراً من أهل السلوك والإرادة يشهدون ربوبية الرب، وما قدره من الأمور التي ينهى عنها، فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية، ويظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء والتسليم، وهذا جهل وضلال قد يؤدي إلى الكفر والانسلاخ من الدين؛ فإن الله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان؛ بل يأمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان، كما قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١).

والله تعالى قد قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرُ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا ما لا يرضاه لنا؟! وهو جعل ما يكون من الشر محنة لنا وابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى بعد أمره بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْصَرَفَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً، يكون ما يقضي عليه من المصائب خيراً له، وإذا كان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مجاهداً في سبيله، كان ما قدر له من كفر الكفار سبب للخير في حقه، وكذلك إذا دعاه الشيطان والهوى كان ذلك سبباً لما حصل له من الخير، فيكون ما يُقدَّر من الشر إذا نازعه ودافعه، كما أمره الله ورسوله سبباً لما يحصل له من البر والتقوى وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات، فهذا وأمثاله مما يُبين معنى هذا الكلام، والله أعلم اهـ.

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٤٩/٧٨).

(٢) رواه مسلم في «الزهد» (٢٩٩٩/٦٤).

ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي: «الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ» (ص: ١٩) وَمَا بَعْدَهَا مَلْخَصًا:

«وَلَكِنْ يَبْقَى عَلَى مَنْ وَقَّعَهُ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ رَشْدَهُ أَمْرَانِ بَهْمَا تَتِمُّ سَعَادَتُهُ وَفَلَاحُهُ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْرِفَ تَفَاصِيلَ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْأَمْرَ الثَّانِي: أَنْ يَحْذَرُ مِغَالَطَةَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ.

فَإِنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ وَالْغَفْلَةَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَضِرَّةِ لَهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَلَا بَدَّ، وَلَكِنْ تَغَالَطَ نَفْسَهُ بِالِاتِّكَالِ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ تَارَةً، وَبِالتَّسْوِيفِ بِالتَّوْبَةِ تَارَةً، وَبِالِاسْتِغْفَارِ بِاللِّسَانِ تَارَةً، وَبِفِعْلِ الْمُنْدُوبَاتِ تَارَةً، وَبِالْعِلْمِ تَارَةً، وَبِالِاحْتِجَاجِ بِالْقَدْرِ تَارَةً، وَبِالِاحْتِجَاجِ بِالشَّيْءِ وَالنَّظَائِرِ تَارَةً، وَبِالِاقْتِدَاءِ بِالْأَكْبَرِ تَارَةً أُخْرَى، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ قَالَ: «اسْتَغْفِرُ اللَّهَ» زَالَ الذَّنْبُ وَرَاحَ هَذَا بِهِذَا.

وَقَالَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْفَقْهِ: أَنَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ ثُمَّ أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَقَدْ غُفِرَ لِي ذَلِكَ أَجْمَعُ؛ كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١).

وَقَالَ لِي آخَرٌ: قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُذْنِبُ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَغْفِرْ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أُذْنِبُ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَصْنَعْ مَا شَاءَ»^(٢)، وَأَنَا لَا أَشُكُّ أَنَّ لِي رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ قَدْ تَعَلَّقَ بِنُصُوصٍ مِنَ الرِّجَاءِ وَاتَّكَلَ عَلَيْهَا، وَتَعَلَّقَ بِهَا بِكُلِّتَا يَدَيْهِ، وَإِذَا عَوَّتَبَ عَلَى الْخَطَايَا وَالْإِنْهَمَاكِ فِيهَا سَرَدَ لَكَ مَا يَحْفَظُهُ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَنُصُوصِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَنُصُوصِ الرِّجَاءِ، وَلِلْجَهَّالِ مِنْ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٩٢).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٠٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٨).

هذا الضرب من النَّاسِ في هذا الباب غرائب وعجائب، وهذا إِنَّمَا أَتَى صاحبه من قلة علمه وفهمه، كإغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟﴾ [الأنفطار: ٦]، فيقول: كرمه!، وقد يقول بعضهم: إِنَّهُ لَقَدْ الْمَغْتَرَّ حِجَّتَهُ، وهذا جهل قبيح، وَإِنَّمَا غَرَّهُ رَبُّهُ الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله، وَأَتَى سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيّد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الإغترار به ولا إهمال حقه، فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الإغترار به، وأشابه ذلك كثير.

ومن تأمل هذا الموضع حقَّ التأمل علم أنَّ حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى حَسَنِ الْعَمَلِ حَسَنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ، أَنَّهُ يُجَازِيهِ عَلَى أَعْمَالِهِ وَيُثَبِّتُهَا عَلَيْهِ وَيَتَقَبَّلُهَا مِنْهُ، فَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى حَسَنِ الْعَمَلِ حَسَنُ الظن، فَكَلِمًا حَسَنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ حَسَنُ عَمَلِهِ، وَإِلَّا فَحُسْنُ الظنِّ مَعَ اتِّبَاعِ الْهَوَى عَجْزٌ، وَبِالْجُمْلَةِ، فَحَسَنُ الظنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ النِّجَاةِ، وَأَمَّا مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ فَلَا يَتَأْتِي إِحْسَانُ الظنِّ.

وقد قال أبو أمانة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنائير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرّقها، فشغلني وجع النَّبِيِّ ﷺ حتّى عافاه الله، ثُمَّ سألني عنها فقال: «ما فعلت؟ أكنت فرّقت الستة دنائير؟» فقلت: لا والله، لقد شغلني وجعك، فدعا بها فوضعها في كفّه فقال: «ما ظنَّ نَبِيِّ اللَّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهُ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟! وفي لفظ: «ما ظنَّ محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده»^(١).

فيا لله ما ظنَّ أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟! فَإِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ قَوْلُهُمْ: حَسَنًا ظَنُّونَا بِكَ لَنْ تَعَذِّبَ ظَالِمًا وَلَا فَاسِقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نها الله عنه، وليحسن ظنّه بالله، فَإِنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٤٤٢)، (٢٤٦١٤)، (٢٥٣٦٨)، قال الهيثمي في: «مجمع الزوائد» (٢٤٠/١٠): «رواه أحمد بأسانيد ورجال أحدهم رجال الصحيح».

فسبحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد؟!، فكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ: «رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحق»، وقال أبو الوفاء بن عقيل: «من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة نحو هذا»، وقيل للحسن البصري: نراك طويل البكاء! فقال: «أخاف أن يطرحني في النار ولا يُبالي، إنَّ قومًا ألتهتهم أمانى المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: إنِّي أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل».

وسأل رجل الحسن البصري فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: «والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنا، خير لك من أن تصحب قومًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف».

فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وأنَّ حسن الظن إنَّ حُمِلَ على العمل وحثَّ عليه وساق إليه فهو صحيح، وإنَّ دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، وحسن الظنَّ هو الرجاء، فمن كان رجاءه هاديًا إلى الطاعة، وزاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاءه بطالة وتفريطًا فهو المغرور.

وسرُّ المسألة: أنَّ الرجاء وحسن الظنَّ إنَّما يكونا مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدره، وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ويحسن ظنَّه بربه، ويرجوه أن لا يَكْلَهُ إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعارضها ويبطل أثرها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤَلِيكََ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ؟﴾ [البقرة: ٢١٨]، فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات؟!، والله سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعُلِمَ أنَّ الرجاء والخوف النافع هو: ما اقترن به العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ ٥٧ وَالَّذِينَ

هُم بِثَابِتٍ رَيْبِهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَيْبِهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَيْبِهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧-
٦١].

وقد روى الترمذي في «جامعه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ
عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا، يا
بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا تقبل
منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»^(١). اهـ.



(١) رواه الترمذي في «سننه» (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحاكم في «المستدرک» (٣٤٨٦)،
وصححه ووافقه الذهبي في «التلخيص».

القاعدة السادسة

**«اجتماع التصديق الجازم بالوعد والوعيد وتخلف العمل
مرض عضال، وسببه ضعف العلم واليقين مع غلبة الهوى
وضعف البصيرة والصبر، وشفاءه قوة ذلك المذكور»**

قال الإمام ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٣٩-٤٠):

«فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية: أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهياً وغافلاً، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ أهبطه؟!

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدهما: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت، فقله من أفسد الأقوال وأبطلها، وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أنه يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة [حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]]، ويصير المعلوم غيباً شهادة، وقد روى أحمد في «مسنده» عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس المُخْبِرُ كالمعاین»^(١).

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٤٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٣، ٢٠٨٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٣/١): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح والحاكم في «المستدرک» (٣٢٥٠)، وصححه =

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، وغيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورُخص التأويل، وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا؛ ولهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا الله سبحانه جعلهم أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ يَا مَعْرِبُ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. اهـ.

فما أجمل وأجل ما كتبه ورصعه الإمام الفقيه الأصولي ابن قيم الجوزية رحمه الله وجزاه عن الأمة خير الجزاء.

• بيان العلم واليقين لغةً وشرعاً:

قال الراغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٥٥٣): «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يُقال علم يقين ولا يُقال معرفة يقين، وهو: سكون الفهم مع ثبات الحكم» اهـ.

وهذا من أجود التعريفات لليقين، لأن فيه ثباتاً للحكم واستقراره وسكوناً وطمأنينة للفهم والوعي والإدراك والبصيرة، وعرف الراغب البصيرة (ص: ٤٩) فقال: «ومن قوله تعالى: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ أي: على معرفة وتحقق، وقوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]؛ أي: تبصره نفسه فتشهد له وعليه من جوارحه؛ بصيرة تبصره فتشهد له وعليه يوم القيامة» اهـ.

= ووافقه الذهبي، ولفظ الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح».

وقال القرطبي في: «جامعه» (٩/١٩٣):

«قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ أي: على يقين وحق ومنه: فلان مُسْتَبْصِر بهذا»

اهـ.

وقال الراغب في معنى العلم (ص: ٣٤٣):

«العلم إدراك الشيء بحقيقته، وذلك على ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء، والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه، والعلم من وجه ضربان: نظري وعملي، فالنظري: ما إذا عُلِمَ فقد كَمَل، نحو العلم بموجودات العالم، والعملي: ما لا يتم إلا بأن يعمل، كالعلم بالعبادات ومن وجه آخر ضربان: علم عقلي وعلم سمعي، وأعلمته وعَلَّمته في الأصل واحد، إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المُتَعَلِّم، والتعلّم: تنبُّه النفس لتصور المعاني» اهـ.

وذلك للقاعدة الكلية: «الحكم على الشيء فرع عن تصوّره».

وقال ابن منظور في «لسان العرب» (١٦/٣٢١):

«اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن، واليقين نقيض الشك والعلم نقيض الجهل وفي الكتاب العزيز قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]؛ أضاف الحق إلى اليقين وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأنَّ الحق هو غير القين، وإنَّما هو خالصة وأصحّه، فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل» اهـ.

وكذلك قال في: «لسان العرب» (١٠/٢٦٣):

«وقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فأخبر ﷺ أن من عباده من يخشاه، وأنهم هم العلماء، وروي عن ابن مسعود أنه قال: «ليس العلم بكثرة الرواية والحديث، ولكن العلم خشية الله»، قال الأزهري: يؤيد ما قاله ابن مسعود قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال

بعضهم: العالم الذي يعمل بما يعلم، وروى الأزهرى عن سعد بن زيد عن أبي عبد الرحمن المُقَرِّي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨] قال: لذو علم بما علمناه، فقلت: يا أبا عبد الرحمن ممّن سمعت هذا؟ قال: من ابن عيينة، قلت: حسبي.

وقال ابن جنّي: لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ قَدْ يَكُونُ الْوَصْفُ بِهِ بَعْدَ الْمَزَاوِلَةِ لَهُ وَطُولِ الْمَلَابَسَةِ صَارَ كَأَنَّهُ غَرِيزَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى أَوَّلِ دُخُولِهِ فِيهِ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ مُتَعَلِّمًا لَا عَالِمًا، فَلَمَّا خَرَجَ بِالْغَرِيزَةِ إِلَى بَابِ فَعْلٍ صَارَ عَالِمًا فِي الْمَعْنَى كَعَلِيمٍ اهـ.

وقال ابن القيم في: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ١٤):

«ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا [قَطْعًا، مُتَفَرِّقُونَ مُخْتَلِفُونَ]، وَكُلٌّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، جَعَلُوا التَّعَصُّبَ لِلْمَذَاهِبِ دِيَانَتَهُمُ الَّتِي بِهَا يَتَّبِعُونَ، وَآخَرُونَ مِنْهُمْ قَنَعُوا بِمَحْضِ التَّقْلِيدِ وَقَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وَالْفَرِيقَانِ بِمَعْزِلٍ عَمَّا يَنْبَغِي اتِّبَاعَهُ مِنَ الصَّوَابِ، وَلِسَانُ الْحَقِّ يَتْلُو عَلَيْهِمْ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، قَالَ الشَّافِعِيُّ -قَدَسَ اللَّهُ تَعَالَىٰ رُوحَهُ-: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ مِنْ اسْتِبَانَتِهِ لَهُ سَنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدْعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

قال أبو عمر وغيره من العلماء: أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُقْلِدَ لَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ بِدَلِيلِهِ.

وهذا كما قال أبو عمر -رحمه الله تعالى-؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ الْحَاصِلَةُ عَنْ دَلِيلٍ اهـ.

• الهدى معرفة الحق والعمل به:

قلت: ولذلك قالوا: الهدى معرفة الحق والعمل به، والإيمان قول وعمل ونية واتباع السُّنَّةِ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] فمن أشد المقت عند الله

والبغض والسخط أن يخالف فعلك قولك وقولك فعلك .

ولقد أتم الرسول ﷺ للأمة دينها ، قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] ، وقد بلغ وعلم ونصح وأدى الأمانة ﷺ .

فقد روى مسلم في «صحيحه» (٤٧٩) من حديث ابن عباس قال : كشف رسول الله ﷺ الستر ورأسه معضوب في مرضه الذي مات فيه فقال : «اللهم بَلِّغْتَ، اللهم بَلِّغْتَ، اللهم بَلِّغْتَ، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو تری له» .

ونزلت على رسول الله ﷺ يوم عرفة يوم جمعة في حجة الوداع هذه الآية : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، وقال ﷺ : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] ، وقال ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] ، وقال ﷺ : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ، وروى ابن بطة العكبري في : «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» (١٦٥) والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٣٨٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : «أيها الناس ، إنه لا عذر لأحد بعد السنّة في ضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا في هدى تركه حسبها ضلالة ، فقد بينت الأمور ، وثبتت الحجّة ، وانقطع العذر» .

• لا رأي لأحد مع سنة سنّها رسول الله :

وروى العكبري في «الإبانة الكبرى» (١٠٢) ، والمروزي في «السنّة» (٨٠) ، والأجري في «الشريعة» (١٠٤) والخطيب والبغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٥٤٨) وأبو عمر بن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٩٢٢) ، وابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» (٧٨٧ / ٦) عن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد ، أنه كتب إلى الناس : «لا رأي لأحد مع سنة سنّها رسول الله ﷺ» .

فإذا كان ذلك كذلك فاعلم أن هذا الدين الحنيف العظيم لا شك فيه قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وأمر سبحانه بتعلم هذا القرآن وفهمه وتدبره والعمل بما فيه، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدُبُرِ أَآيَاتِهِ وَلِتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] في هذا الكتاب الجنة والنار، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، والعلم والجهل، والحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وفيه التبشير والتنذير، وما ترك رسول الله ﷺ من شيء في هذا الدين إلا وبينه أتم بيان، ويكفي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ثم مع كل هذا البيان والتبيان مع التصديق الجازم بكل ذلك يتخلف العمل، فذلك الضلال المبين، فكشف وأظهر وأجلى الطبيب الفذ ابن قيم الجوزية أسباب هذا المرض السرطاني وبيانها وكيفية الشفاء منها، فذكر ضعف العلم ونقصان اليقين، ولماذا؟ لأن الطبع الغلاب على الكسل وعدم القدرة على إزاحته، والنفس الأمارة بالسوء والخراب والهلاك، واستيلاء الشهوات والرغبات، وطول الأمل والتسويق والرجاء في الله بلا عمل وجهد ولا نصب مع معصية الله، وحب الدنيا العاجلة ونسيان الآخرة المؤجلة، ورخص التأويل والتحليل على تحليل ما حرّمه الله، ورقدة الغفلة المميّنة المدمّرة، وإلف العوائد والأعراف والتقاليد الباطلة المخالفة لله وللرسول ولإجماع المسلمين، مع غلبة الهوى معول الضلال والزيف والانحراف.

• لا علم ولا بيان ولا عقل مع فساد المعتقد:

وما أجمل وأنفع وأجل وأنصح ممّا رصّعه وبلّغه التابعي الذي لقي أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ فقد روى أبو نعيم في: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٨٤٥٥) عن عطاء السُّلَمي أنه قال: «بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان».

فلا علم ولا بيان ولا عقل ولا يقين ولا جزم ولا تصديق فعليّ مع الشهوات والأهواء، وليس هنالك إلا الغفلة المتعمدة، فما أعظمه من مرض خبيث تملك وهيمن وسيطر وقهر وغلب البلاغ والبيان والعلم والتبيان فأهلك وفرّق وبدّع وحرّق وفسّق وكفّر وألحد، فنسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خِيراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٣]، والقاعدة الكلية: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فهي تشمل كل الناس، المسلم قبل غيره، ثم قال تعالى في سياق الآيات وبعدها مباشرة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فليحذر كل مسلم موحد على قلبه ولم يستجب لله وللرسول في الأمر والنهي والحلال والحرام، فالشفاء التام في الاستجابة لله وللرسول قال اللطيف الخبير: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

• بيان صفة الحياة الشرعية الطيبة:

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/١٢٧):

«قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ شرط وجوابه.

وفي الحياة الطيبة أقوال: الأول: أنه الرزق الحلال قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك، الثاني: القناعة، قاله الحسن البصري وزيد بن وهب، ووهب بن منبه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول علي بن أبي طالب، الثالث: توفيقه إلى الطاعات، فإنها تؤديه إلى رضوان الله، قال معناه الضحاك، وقال الضحاك أيضاً: من عمل صالحاً وهو مؤمن في فاقة وميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحاً فمعيشته

ضنك لا خير فيها ، وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : الجنة ، وقاله كذلك الحسن وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ، وقيل : هي السعادة ، وروي ذلك عن ابن عباس أيضًا ، وقال أبو بكر الورّاق : هي حلاوة الطاعة ، وقال سهل بن عبد الله التستري : هي أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق ، وقال جعفر الصادق : هي المعرفة بالله ، وصدق المقام بين يدي الله ، وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق ، وقيل : الرضا بالقضاء اهـ .

قلت : أجمع الصحابة على أن القرآن وجوهاً ، ومنها هذه الآية وكل هذه الوجوه يُفسّر بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ، وبينها ترادف وتوافق ؛ وذلك للعموم الكلي لقوله تعالى : ﴿ حَيَوةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ وكل ما ذكر طيب ومن الدين والشرع الذي عليه إجماع أهل العلم سلفاً وخلفاً ، فالرزق الحلال أصل صلاح الدنيا والدين ، والقناعة من الدين والعمل الصالح ، والتوفيق إلى الطاعات الخير كله ؛ لأنه أصل العبادة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، والعبادة أمر ونهي والوقوف عند حدود الله وكلها طاعات لله ، والمعرفة بالله هي أصل الحياة الطيبة الصالحة ، ولا تكون طيبة إلا بالاستجابة لله وللرسول حيث قال تعالى في سورة الأنفال - وقد مرت - ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، ومع ضعف العلم ، ونقصان اليقين ، وضعف البصيرة ، وغلبة الهوى ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وطول الأمل ، فتلك الحياة الخبيثة ، والتي مصيرها إلى النار لا إلى الجنة ، قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، أمّا حال من جمع بين التصديق الجازم الذي لا شك فيه وتخلّف العمل ، فيصدق عليه هذه الآية ، والآية الثانية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ [الجاثية : ٢٣] ، فالحلال بين ، والحرام بين ، والهدى بين والضلال بين ، والرشاد بين والغى بين ، والحق بين والباطل بين ، وقد أقيمت

الحجة وبُينت الأمور وانقطع العذر لمن بلغه العلم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومن لم يبلغه العلم فلا بد أن يتعلم؛ لأنَّ إجماع الأمة على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وذلك فيما لا يسع المسلم جهله، ولا بد من الصبر واليقين اللذين بهما تنال الإمامة في الدين.



القاعدة السابعة

«لا يوجد في الدنيا والآخرة شرّ وداء ومرض وفساد إلا بسبب الذنوب والمعاصي، وإنّ ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان»

قال ابن قيم الجوزية في: «الداء والدواء» (ص: ٤٤):

«فصل: فلنرجع إلى ما كُنّا فيه من ذكر دواء الداء؛ الذي إذا استمر أفسد دنيا العبد وآخرته، فمِمّا ينبغي أن يُعلم: أنّ الذنوب والمعاصي تضرّ ولا بد، وأنّ ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرّ وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

• ما أهون الخلق على الله ﷻ إذا هم أضاعوا أمره!!!]

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفيّر عن أبيه قال: «لَمَّا فُتِحَتْ قَبْرُصُ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا يَبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ؟! فَقَالَ: وَيَحْكُ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ إِذَا هُمْ أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمَلِكُ؛ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى»^(١). اهـ.

قلت: قال الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٨):

(١) رواه أبو نعيم الأصفهاني (٧٠٩) في: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء».

«اختلف العلماء في معنى الفساد في البر والبحر، فقال قتادة والسدي، الفساد الشرك وهو أعظم الفساد، وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: فساد البر قتل ابن آدم أخاه، قابيل قتل هابيل، وفي البحر بالمليك الذي كان يأخذ كل سفينة غضبًا، وقيل: الفساد القحط وقلة النبات وذهاب البركة ونحوه قال ابن عباس، قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا، قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية، وعن ابن عباس أيضًا قال: إن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقال ابن عطية: فإذا قلَّ المطر قل الغوص عنده وأخفق الصيادون، وعميت دواب البحر، وقال ابن عباس: إذا أمطرت السماء فتفتحت الأصداف في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ، وقيل: الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش، وقيل: الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم؛ أي: صار هذا العمل مانعًا من الزرع والعمارات والتجارات [وذلك بسبب قطع الطريق وخوف الناس]، والمعنى كله متقارب، قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ويكون المعنى: ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى الأسعار ليزيقهم عقاب بعض الذي عملوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، لعلهم يتوبون» اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

قال القرطبي في: «جامعه» (١٤ / ٢٣٠ - ٢٣١):

«قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾؛ يعني: من الذنوب والمعاصي، ﴿مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ﴾ قال ابن مسعود: «يريد جميع الحيوانات ممّا دبّ ودرج»، قال قتادة: وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام، قال ابن مسعود: كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم، وقال يحيى بن أبي كثير: أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال رجل له: عليك بنفسك؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال أبو هريرة: كذبت؟ والله الذي لا إله إلا هو، والذي نفسي بيده إن الحباري لتموت هزلًا في وكرها بظلم الظالم»، وقال الثمالي

ويحيى بن سلام في هذه الآية: يحبس الله المطر فيهلك كل شيء، وقد مضى في سورة البقرة نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]: «هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنوه» اهـ.

وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضِرِبَهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [الحشر: ١٨ - ٢١].

قال السعدي في «تفسيره» (ص: ٨١٤):

«يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجب به الإيمان ويقتضيه من لوازم تقواه سرًا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفياتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضع لديه ولا يهملها، أوجب ذلك لهم الجِدَّ والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة.

● والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله

وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره؛ لأنهم هم الفاسقون العاصون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدّم لعدّه فاستحقّ جنات النعيم والعيش السليم الكريم - مع الذين أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟! -، ومن غفل عن ذكر الله ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولمّا بيّن تعالى لعباده ما بيّن، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجّباً لأنّ يبادروا إلى ما دعاهم إليه وجثّهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة قلوبهم كالجبال الرواسي، فإنّ هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيت خاشعاً متصدّعاً من خشية الله؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فإنّ مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيّه محتوية على الحكّم والمصالح المقرّونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان خالية من التكلّف، ولا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان وتليق لكل أحد.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ضرب للنّاس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبّروها؛ فإنّ التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثّه على مكارم الأخلاق، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه» اهـ.

• خمس إذا ابتليتم بهنّ!!!:

روى ابن ماجه في «سننه» (٤٠١٩) كتاب الفتن باب العقوبات وصححه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣٦٧/٤) قال: «هذا حديث صحيح الإسناد،

هذا حديث صالح للعمل» والحاكم في «المستدرک» (٨٦٢٣) وصححه ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة (١٠٦) للألباني من حديث ابن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهنَّ وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المثونة وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا.

ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا ما في أيديهم.

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا ممَّا أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم».

وروى أحمد في «المسند» (٢٢٢٩٦) وأبو داود في «سننه» (٤٢٩٧) وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥٦) من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» قلنا: يا رسول الله، أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت».

قال أبو الطيب في: «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣٦٦/٧):

«قوله ﷺ: «يوشك»: أي: تقرب فرق الكفر وأمم الضلالة «أن تداعى عليكم»: أي: تتداعى، بأن يدعو بعضهم بعضاً لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال «كما تداعى الأكلة» وهي جمع آكل، والمعنى: كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضاً «على قصعتها» فالضمير للأكلة؛ أي: التي

يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفواً وشفواً كذلك، فيأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم ولا ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم، قوله: «ولكنكم غشاء كغشاء السيل»؛ أي: ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبههم بالوسخ لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم «ولينزعن»؛ أي: ليخرجن «المهابة»؛ أي: الخوف والرعب «وليقذفن»؛ أي: وليرمين الله «الوهن»؛ أي: الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يوجبه، ولذلك فسره بحب الدنيا وكرهية الموت، قولهم: «وما الوهن؟»؛ أي: وما سببه؟ قال الطيبي: سؤال عن نوع الوهن، أو كأنه أراد: من أي وجه يكون ذلك الوهن؟ قال: «حُب الدنيا وكرهية الموت» وهما متلازمان، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية» اهـ.

وروى أحمد في «مسنده» (٢٢٦٠٨، ٢٢٧٩٨) وابن ماجه في «سننه» (٤٠٢٠) وأبو داود (٣٦٨٨) من كتاب الفتن، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليشربن ناسٌ من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رُءوسهم بالمعازف والمُعَنَّيات، يُخَسِّفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ».

• كيف يُسلط الله علينا ذلاً فلا ينزعه حتى؟!

وروى أبو داود في «سننه» (٣٤٦٢) والبرزاري في «مسنده» (٥٨٨٧)، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٥١٤) وحسنه، من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

وروى ابن ماجه في «سننه» (٤٠٠٩) والبيهقي في «الكبرى» (٩١ / ١٠)، وأبو داود (٤٣٣٩)، والطيالسي في «مسنده» (٦٩٨) والطبراني في «الكبير» (٧٧٦٧، ١٠٥١٢) وأحمد في «المسند» (١٩٢٧٣، ١٩٢٧٥، ١٩٢٥٠)، وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير» (٨٠٨٥) عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، هم أعز وأكثر ممن يعمله، ثم لا يغيروه

إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ بِعِقَابٍ .

قال المناوي في : «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٥ / ٦٣٩) :

«قوله ﷺ : «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي» ؛ أي : وَهُمْ مَمَّنْ لم يعمل بها ،
أنَّه عمل بها غيرهم «هم أعزَّ» ؛ أي : أَمْنَع ، لهم منعة وقوة «إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»
لأنَّهم لم يغيروا المعصية ، لأنَّ من لم يعمل إذا كانوا أكثر ممَّن يعمل ، كانوا قادرين
على تغيير المنكر غالباً ؛ فتركهم له رضاً بالمحرِّمات وعمومها ، وإذا كثر الخبث عمَّ
العقاب الصالح والطالح ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٧] ، كل من شاهد منكراً ولم ينكره فهو شريك فيه ، فالمستمع
شريك المغتاب ، ويجري هذا في جميع المعاصي» اهـ .

وروى البخاري في «صحيحه» (٦٤٩٢) عن أنس بن مالك قال : «إنكم
لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر ، وإن كُنَّا لَنُعدها على عهد
رسول الله ﷺ من الموبقات» ، وروى البخاري (٦٣٠٨) عن ابن مسعود قال : «إنَّ
المؤمن يرى ذنوبه كأنَّها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه
كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار» .

وروى أبو نعيم في : «حلية الأولياء» (٩٤١) عن حذيفة بن اليمان ، قيل له : في
يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال : «لا ، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء
تركوه ، وإذا نهوا عن شيء ركبوه ، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من
قميصه» .



القاعدة الثامنة وبيان آثار المعاصي ومفاسدها
«الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ
نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ»

نص القاعدة حديث رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٦٤) وابن ماجه في «سننه» (٤٢٦٠) والترمذي في «سننه» (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن، ولكن ضَعَفَ هذا الحديث لراويه سفيان بن وكيع، بكير بن عبد الله الغساني وضعفه الذهبي في التلخيص، وغالب المحدثين على ضعفه، ولكن أورده ابن القيم هنا في «الداء والدواء»، وكذلك صححه الحاكم في «المستدرک» فيحتمل التحسين، مع قول الترمذي الجامع: «حديث ضعيف وعليه العمل» والحديث حقاً معناه صحيح بإجماع العقلاء والعلماء.

قال الترمذي بعد رواية الحديث:

«ومعنى قوله: «من دَانَ نفسه» يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحاسب يوم القيامة، ويروى عن عمر بن الخطاب قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وتزَيَّنوا للعرض الأكبر، وإِنَّمَا يَخْفُ الْحَسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا» ويروى عن ميمون بن مهران قال: لا يكون العبد تقيًّا، حتَّى يُحَاسِبُ نَفْسَهُ كما يحاسب شريكه من أين مَطْعَمُهُ وملبسه» اهـ.

قال المباركفوري في: «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي» (٦/ ٣٣٢-

(٣٣٣):

«الْكَيْسُ»؛ أي: العاقل المتبصر في الأمور، الناظر إلى العواقب «من دَانَ نفسه»؛ أي: حاسبها وأذلَّها واستعبدها وقهرها؛ حتَّى صارت مُطِيعَةً مُتَقَادَةً «وعمل لم بعد الموت»، قبل نزوله ليصير على نور من ربِّه، فالموت عاقبة أمر الدُّنْيَا، فالكيس من أبصر العاقبة «والعاجز» المُقَصِّرُ في الأمور «من أَتْبَعَ نفسه هواها» من

الاتباع؛ أي: جعلها تابعة لهواها فلم يكفّها عن الشهوات، ولم يمنعها عن مقارنة المحرّمات «وتمنّى على الله الأمانى» فهو مع تفريطه في طاعة ربّه واتباع شهواته لا يعتذر، وهو عاصٍ لله وفاسق، بلّ يتمنّى على الله الأمانى أن يعفو عنه.

قال الطّبيبي: والعاجز الذي غلبت عليه نفسه وعمل ما أمرته به نفسه، فصار عاجزاً لنفسه فأتبع نفسه هواها وأعطاه ما اشتتهته، قُوبِلَ الكيس بالعاجز، والمقابل الحقيقي للكيس: السفية الرأي، وللعاجز: القادر، ليؤذن بأنّ الكيس هو القادر، والعاجز هو السفية و«تمنّى على الله»؛ أي: يُذنب ويتمنّى الجنة من غير الاستغفار والتوبة اهـ.

قلت: فهو السفية حقاً، الذي يُحجّر عليه ليرجع إلى رشده وعقله.

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٥٤ - ٥٧) مختصراً:

«ومن هنا قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أنّ القُبلة بريد

الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت».

وفي «حلية الأولياء» عن ابن عباس قال: «يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته، ولما ينبع الذنب من الذنب إذا علمته، قلة حيائك ممّن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم [إِذْ يَلْقَى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨﴾]»، [ق: ١٧، ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٦﴾ كِرَامًا كُنِينِ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ويحك، هل يدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ما له؟! استغاث مسكين على ظالم يدرؤه عنه فلم يُعنه، ولم ينّه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله تعالى»^(١).

(١) رواه أبو نعيم الأصفهاني في: «الحلية» (١١٤٧) قال: حدثنا أحمد بن السندي، حدثنا =

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلى صِغَرِ المعصية، ولكن انظر من عصيت». وقيل: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إبليس، وذلك أَنَّهُ عصاني، وَإِنَّمَا أَعُدُّ مِنْ عصاني مِنَ الأموات».

● إقامة الدين بين الريادة والإبادة:

وقال أحمد: حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «أَمَّا بَعْدُ، يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ مِنْ يُلْحَاكُمُ، كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ -لقضيب في يده- ثُمَّ لَحَى قَضِيبُهُ فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ يَضِلُّدُ». اهـ. قلت: رواه أحمد في «مسنده» (٤٣٨٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٠٢٤)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٥١٣) ومعنى «يلحاكم»؛ أي: يحرمكم ويمنعكم من هذا الأمر وهو الولاية الكبرى لحكم المؤمنين، «والحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً»، فإذا عصيتم ربكم منعكم هذا المنصب وجعله في غيركم، والسبب والعلة معصية الله والإعراض عن أمره ونهيه. قال ابن الأثير في «النهاية» (٢٠٩/٥):

«لحيت الرجل ألحاه لحيا: إذا لمته وعزلته ونازعته فذكر الحديث بلفظ «فإذا فعلتم سلط الله عليكم شرار خلقه فالتحواكم كما يلتحى القضيب» اهـ. وهذا الحديث قال الهيثمي في: «مَجْمَعُ الزَّوَادِ وَمَنْبَعُ الْفَوَائِدِ» (١٩٢/٥): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورجال أبي يعلى ثقات»، وصححه كذلك الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣٠/١٣): رجاله ثقات.

= الحسن بن علي، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار، حدثنا إسحاق بن بشر بن جوبير عن الضحاك عن ابن عباس قال...، ولعلَّ هذا الأثر ضعيف لأنه لا يليق بنبي من أنبياء الله كأيوب عليه السلام.

وهذا الحديث يبيّن عظم المعصية وأثرها الخطير في التحوّل في مناصب الولاية العظمى، فقول النَّبِيِّ ﷺ: «فإنكم أهل هذا الأمر»؛ يعني: أنتم سادة النَّاس لحكم النَّاس والمراد الخلافة، وربطها بالطاعة لله وللرسول وتقوى الله، فإن توليتم عن ذلك هلكتم وأهلكتم ونزعت منكم هذه الخلافة، وقد روى البخاري في «صحيحه» (٧١٤٠) ومسلم (١٨٢٠) عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان».

هذا الحديث رواه البخاري في «صحيحه» في بداية كتاب الأحكام، باب (٢) الأمراء في قريش، وروى قبله (٧١٣٩) عن الزهري قال: كان محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم يُحَدِّث: أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش، أن عبد الله بن عمرو يُحَدِّث: أنه سيكون مَلِكٌ من قحطان، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أمّا بعد، فإنه بلغني أن رجلاً منكم يُحَدِّثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا تُؤثر عن رسول الله ﷺ، وأولئك جُهَّالكم، إياكم والأمانى التي تُضِلُّ أهلها؛ فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحدٌ إلَّا كَبَّهُ الله في النَّار على وجهه؛ ما أقاموا الدين».

قال الحافظ بن حجر العسقلاني في: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١٢٧/١٣)، وما بعدها:

«والمراد بالأمر في حديث معاوية الخلافة، كذا قال، ونقل عن المهلب: أنه يجوز أن يكون ملكٌ يغلب على النَّاس من غير أن يكون خليفة، وإنما أنكر معاوية؛ خشية أن يظن أحدٌ إنَّ الخلافة تجوز في غير قريش، فلمَّا خطب بذلك، دلَّ على أنَّ الحكم عندهم كذلك؛ إذ لم يُنقل أن أحدًا منهم أنكر عليه.

قلت [ابن حجر]: ولا يلزم من عدم إنكارهم صحة إنكار معاوية ما ذكره عبد الله بن عمرو، فقد قال ابن التين: الذي أنكره معاوية في حديثه ما يقوله؛ لقوله ﷺ: «ما أقاموا الدين»، فربَّما كان فيهم من لا يقيمه فيتسلط القحطاني عليه، وهو كلام مستقيم.

قوله ﷺ: «ما أقاموا الدين»؛ أي: مدة إقامتهم أمور الدين، قيل: يحتمل أن يكون مفهومه: فإذا لم يقيموه لا يُسمع لهم، وقيل: يحتمل أن لا يُقام عليهم وإن كان لا يجوز إبقاؤهم على ذلك، ذكرهما ابن التين، ثم قال: وقد أجمعوا أنه؛ أي: الخليفة إذا دعا إلى كفر أو بدعة أنه يُقام عليه، واختلفوا إذا غصب الأموال وسفك الدماء وانتهك، هل يُقام عليه أو لا؟ انتهى.

وما ادَّعاه من الإجماع على القيام فيما إذا دعا الخليفة إلى البدعة فمردود، إلا أن يُحمل على بدعة تؤدِّي إلى صريح الكفر، وإلا فقد دعا المأمون والمعتصم والواثق إلى بدعة القول بخلق القرآن، وعاقبوا العلماء من أجلها بالقتل والضرب والحبس وأنواع الإهانة [كما حدث لإمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ]، ولم يقل أحد بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك، ودام الأمر بضعة عشرة سنة، حتى ولي المتوكل الخلافة فأبطل المحنة وأمر بإظهار السنة.

وما نقله من الاحتمال في قوله: «ما أقاموا الدين» خلاف ما تدلُّ عليه الأخبار والأحاديث الواردة في ذلك، الدالة على العمل بمفهومه، أو أنهم إذا لم يقيموا الدين يخرج الأمر عنهم، وقد ورد في حديث أبي بكر الصديق نظير ما وقع في حديث معاوية، ذكره محمد بن إسحاق في «الكتاب الكبير»، فذكر قصة سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر وفيها: «فقال أبو بكر: وإن هذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله واستقاموا على أمره»^(١).

وقد جاءت الأحاديث التي أشرت إليها على ثلاثة أنحاء: الأول: وعيدهم باللعن إذا لم يُحافظوا على المأمور به، كما في الأحاديث التي ذكرتها في الباب الذي قبله حيث قال ﷺ: «الأمراء من قريش ما فعلوا ثلاثاً: ما حكموا فعدلوا» الحديث، وفيه: «فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله»^(٢)، وليس في هذا ما

(١) هو حديث النبي عند البخاري الذي مرَّ آنفاً.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٢٣٠٧)، والحاكم في «المستدرک» (٨٥٢٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

يقتضي خروج الأمر عنهم ، الثاني : وعيدهم بأن يُسلَّطَ عليهم من يُبالغ في أذيتهم ، فعند أحمد وأبي يعلى من حديث ابن مسعود رفعه إلى النَّبِيِّ ﷺ : «يا معشر قريش ، إنكم أهل هذا الأمر ما لم تُحدِّثوا ، فإذا غيَّرتُم بعث الله عليكم من يلحاكم كما يُلحَى القضيْب» ورجاله ثقات ^(١) ، وله شاهد من مرسل عطاء بن يسار أخرجه الشافعي والبيهقي من طريقه بسند صحيح إلى عطاء ولفظه : «قال لقريش : أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق ، إلَّا أن تعدلوا عنه فتُلحون كما تُلحَى هذه الجريدة»

وأخرج أحمد عن النَّبِيِّ ﷺ قال : «كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم وصيَّره في قريش ، وسيعود إليهم» وسنده جيد ^(٢) ، وهو شاهد قوي لحديث القحطاني ، فإنَّ حمير يرجع نسبها إلى قحطان ، وبه يقوى أنَّ مفهوم حديث معاوية : «ما أقاموا الدين» ، أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم ، ويُؤخذ من بقية الأحاديث : أنَّ خروجه عنهم إنَّما يقع بعد إيقاع ما هُدِّدوا به من اللعن أوَّلًا وهو الموجب للخذلان وفساد التدبير ، وقد وقع ذلك في صدر الدولة العباسية ، ثُمَّ التهديد بتسليط من يؤذيهم عليهم ، وَوُجِدَ ذلك في غلبة مواليهم الديلم ، صاروا معهم كالصبي المحجور عليه يتقنع بلذاته ، ويُباشر الأمور غيره ، ثُمَّ اشتدَّ الخطب ، فغلب عليهم الديلم فضايقوهم في كل شيء ، حتَّى لم يبق للخليفة إلَّا الخطبة ، واقتسم المتغلَّبون الممالك في جميع الأقاليم ، ثُمَّ طرأ عليهم طائفة بعد طائفة ؛ حتَّى انتزع الأمر منهم في جميع الأقطار ، ولم يبق للخليفة إلَّا مجرد الاسم في بعض الأمصار» اهـ .



(١) هو الحديث الذي مرَّ بتحقيقه آنفًا .

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٨٢٧) ، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١١١٥) .

القاعدة التاسعة

«الْبِرُّ لَا يَبْلَى وَالذَّنْبُ لَا يُنْسَى»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٥٦ - ٥٧):

«وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها النَّاسُ في أمر الذنب وهي: أنَّهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخَّرُ فيُنْسَى، ويظنُّ العبدُ أنَّه لا يغير بعد ذلك، وأنَّ الأمر كما قال القائل:

إِذَا لَمْ يُغَيِّرْهُ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ غُبَارٌ
وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ أَهْلَكَتْ هَذِهِ النِّكْتَةُ مِنَ الْخَلْقِ؟!، وكم أزالَتْ من نعمة؟!،
وكم جلبَتْ من نقمة؟!، وما أَكْثَرَ الْمَغْتَرِّينَ بِهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ، فَضْلاً عَنِ
الْجَهَّالِ!، وَلَمْ يَعْلَمْ الْمَغْتَرُّ أَنَّ الذَّنْبَ يَنْقُضُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا يَنْقُضُ السَّمُّ، وَكَمَا
يَنْقُضُ الْجَرْحُ الْمَنْدَمِلَ عَلَى الْغَشِّ وَالذَّلْغِ.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعُدُّوا
أنفسكم في الموتى، واعلموا أنَّ قليلاً يُغْنِيكُمْ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُطْفِئُكُمْ، واعلموا أنَّ
الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى»^(١).

قال سليمان التيمي: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِيبُ الذَّنْبُ فِي السَّرِّ، فَيَصْبِحُ وَعَلَيْهِ
مَذَلَّتُهُ».

وقال سعد بن معاذ الرازي: «عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: «اللهم
لا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ، قِيلَ: وكيف ذلك؟ قال:
يعصي الله ويُشْمِتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلَّ عَدُوٍّ».

وقال ذو النون: «من خان الله في السِّرِّ، هتك الله ستره في العلانية» اهـ.

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦٧٩).

قلت: ومعنى هذه الآثار أنه ينبغي للمسلم أن لا يمرر ما قام فيه بمعصية مرور الكرام، بل يسرع ويهرع إلى التوبة والاستغفار، ولا ينسى أنه عصى، ويظل يتذكر معصيته ويكرر التوبة منها حتى لا يقع في مثيلاتها ويتذكر قوله تعالى: ﴿نَتَوَّعِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٠﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥١﴾ [الحجر: ٥٠، ٥١] فيعبد الله بين هذا وذاك، فمن أدرك أن الله يقبل توبتك؟! ومن ثم تلجج بالاستغفار مع إحسان الظن المقترن بالأعمال الصالحة، وعمل الشيطان مع ابن آدم الغرور والأماشي، فبدلك على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا حق بلا مرية، ولكن لا بد من الفقه والفهم والوعي والإدراك حتى تعلم علّة المسألة، فإن الآية تبين سعة رحمته العظمى، فمهما أتيت من الكبائر فإن صلحت توبتك وأتيت بشروطها، ولم ترجع إلى ما كنت قد تبت منه البتة، وأكثرت من الأعمال الصالحة فنعم، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، والهدى: «معرفة الحق والعمل به»، والحق عدم الفسوق والعصيان، والعمل به يستلزم معرفة سنة رسول الله ﷺ المبينة، كما هو إجماع الأمة: «الإيمان قول وعمل ونية واتباع السنة»، وقد ذكر من قبل في هذا الكتاب تفسير النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَّا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦٠] فهم يصلون ويصومون ويزكون ويكثرون من شتى الأعمال الصالحة، ومع ذكرهم على وجل وخوف أن لا يتقبل الله أعمالهم، فهذا هدي السلف الصالحين من الصحابة أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

• قال ابن القيم في هذا السياق:

«وذكر أبو نعيم في «الحلية» [٧٠٤] عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن تلعه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، تدري ممّ هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقي الله بُغْضَهُ في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر».

وذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل في: «كتاب الزهد» لأبيه، عن محمد بن
سرين: أنه لما ركبهُ الدين اغتمَّ لذلك فقال: «إِنِّي لأعرف هذا الغمَّ بذنب أصبته منذ
أربعين سنة» اهـ.



القاعدة العاشرة وكوارث الذنوب والمعاصي

«حرمان العلم، والضييق في الرزق، ووحشة في القلب، ووحشة لأهل
 الصلاح والخير، وتعسير للأمور، وظلمة في القلب، ووهن في البدن
 والقلب، وحرمان الطاعة، ونقصان العمر ومحو بركته، والجرأة على
 الحرام فيؤلّد بعضه بعضاً، وضعف إرادة القلب وتقوية إرادة المعصية،
 وعدم استقباحها، وهوان العاصي على ربه وسقوطه من عينه، وشؤم
 على نفسه وعلى غيره، وتوريث الذلّ، وفساد العقل وإطفاء نوره،
 والطبع والران على القلب، وتوريث اللعنة على صاحبها، وحرمان دعوة
 الرسول ﷺ ودعوة الملائكة له، وإفساد في الأرض على الحرث
 والنسل والماء والهواء والزروع والثمار والمساكن، وسبب
 للخراب والخسف والزلازل، ومحو الغيرة، وذهاب الحياء، وعدم
 تعظيم الرب سبحانه، ورفع مهابته من قلوب الخلق، ونسيان الله
 للعبد وتركه، ونسيان العاصي لنفسه، وضعف السير بالقلب إلى
 الله والدار الآخرة، أو الإعاقة عن ذلك، وزوال النعم وحلول النقم،
 وعدم السكون والطمأنينة مع وجود الخوف والرّغب، وصرف
 القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، وعمى
 بصيرة القلب وطمس نوره وسد طرق العلم، وحجب موارد
 الهداية، وتصغير النفس وقمعها وتحقيرها وتدسيسها، وكونه
 في أسر الشيطان وشجن شهواته وقيود هواه، وسقوط الجاه
 والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، واستجلاب موارد
 الهلاك في دنياه وآخرته، فكل ذلك وغيره هي الثمار العطبة
 القبيحة المذمومة الكائنة من رحم المعصية»

• ثُمَّ هَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْآيَاتِ قَامَتْ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْكَلِمَةِ «الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ»، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ﴾ (٢) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنَوَاصِرٌ أُولَئِكَ﴾ [العصر: ١-٣]، وَقَالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [ابراهيم: ٣، ٤]، وَقَالَ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [النين: ٤-٦]، وَقَالَ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وَقَالَ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٩) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (١٠) ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وَقَالَ: ﴿وَالْوَيْلُ لَكُمْ إِذَا أَتَقَسَّمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْفِينَهُمْ مَاءً عَذَابًا﴾ (١١) ﴿لَتَفْنِينَ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، وَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وَقَالَ: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَاءَ أَدْنَىٰ رِجْعَةٍ﴾ [الحاقة: ١٢]، وَقَالَ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَنَ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَّكَرًا﴾ (١٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسرًا [الطلاق: ٨، ٩]، وَقَالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وَقَالَ: ﴿بَلَّغْ فَهَلْ يُهْلِكَ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الاحقاف: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيِيهِمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ [غانر: ٥٨]، وَقَالَ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبَغِ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٧) ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾

[فاطر: ٢٢]، وقال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [٣٢] أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٤١﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخِرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٥]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السَّوَاءُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٨، ٥٩]، وقال: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ رَبَّكَ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

كُلِّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمَلَهَا وَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ [الحج: ١، ٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١١٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَأْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ ﴿طه: ١٢٤-١٢٦﴾، وقال: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (١١٦) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿طه: ٩٩، ١٠٠﴾، وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥]، وقال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُوتَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقُهُ الَّذِي وَاقْتَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]، وقال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٣٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣-٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ

رَبِّهِ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْجُ إِلَّا نَكَدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [الأعراف: ٥٨]،
وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوتِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٦-١٠٠]، وقال: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغِيرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥]، وقال: ﴿هَٰذَا بَلَدُنَّ لِلنَّاسِ وَليُذَرُّوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال الحكيم الخبير الرحيم الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِّنَ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦-٧٠]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلَّ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

● جملة من الأحاديث في القاعدة:

● وروى البخاري في «صحيحه» (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن أبى؟! قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

وروى ابن حبان في «صحيحه» (١٧) بلفظ: «لتدخلن الجنة إلا من أبى وشرد على الله شراد البعير» قال ابن حجر في: «فتح الباري» (٢٨١ / ١٣): وسنده على شرط الشيخين، رواه الحاكم في «المستدرک» (١٨٣) وصححه، ووافقه الذهبي.

وروى البخاري في «صحيحه» (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) قال ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وروى البخاري في «صحيحه» (٧٢٨١) عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ وفيه: «فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله ومحمد ﷺ فَرَّقُ بَيْنَ النَّاسِ».

قال ابن الأثير في: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣٩٣ / ٣): «ومنه الحديث: «محمَّدُ فَرَّقُ بَيْنَ النَّاسِ»؛ أي: يَفَرِّقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بتصديقه وتكذيبه، وبين الحق والباطل» اهـ.

فهو فَرَّقُ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالسُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ.
وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن منظور في: «لسان العرب» (١٧٠ / ١١):

«والفرقان: من أسماء القرآن؛ أي: أنه فارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، ويقال: فَرَّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، والفرقان: الحجة، والفرقان: النصر، والفارق: ما فَرَّقَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، ورجل فاروق: يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سَمَّاهُ اللَّهُ بِهِ لِتَفْرِيقِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ولأنه ضرب بالحق على لسانه، وأنه أظهر الإسلام بمكة ففرق بين الكفر والإيمان» اهـ.

قلت: والفاروق الأول في هذه الأمة هو محمد رسول الله ﷺ، الذي فَرَّقَ بين نور الإيمان والقرآن والسُّنَّة، وظلمات الشرك والابتداع والانحراف والأهواء والزيف والضلال والغَيِّ، فكانت المعصية لرسول الله ﷺ معصية لله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَانَتْكُمْ الرِّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرِّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

وروى مسلم في «صحيحه» (٢٢٣) قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

وروى مسلم في «صحيحه» (١٢١١) والبخاري (٧٢٢٩) مختصراً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ لأربع مضيئين من ذي الحجة أو خمس [يعني في حجة الوداع] فدخل عليّ وهو غضبان فقلت: من أغضبك يا رسول الله؟ أدخله الله النار، قال: «أوما شعرت أنني أمرت الناس بأمر، فإذا هم يترددون» وفي رواية: «وما لي لا أغضب وأنا أمرٌ بالأمْر فلا أتبع»؟!.

وروى البخاري في «صحيحه» (١٠) عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، وفي رواية أحمد في «المسند»، (٢٣٩٦٥، ٢٤٠٢٣) قال: «من هجر السيئات»، قال: فمن المؤمن؟ قال: «من ائتمنه الناس على أموالهم وأنفسهم» قال: ومن المجاهد؟ قال: «من جاهد نفسه في طاعة الله» وفي رواية: «والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»، رواه البزار في «مسنده» (٣٧٥٢) والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠٩ / ١٨) رقم (٧٩٦).

• قاعدةٌ ووصيةٌ ذهبيةٌ عجزت أن أعنون لها في كتابي هذا حتى يُعبرَ عنها صاحبها:

فقد روى أبو نعيم في: «حلية الأولياء» (١٧٩٥، ١٨٠٣) عن التابعي الإمام الحسن البصري قال: «يا ابن آدم عملك عملك فإنما هو لحملك ودمك، فانظر على أي حال تلقى عملك، إن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، صدق الحديث،

والوفاء بالعهد، وصله الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق ممّا يقرب إلى الله ﷻ، يا ابن آدم إنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئاً وإن صغر، فإنك إذا رأيت سرّاً مكانه، ولا تحقرن من الشر شيئاً، فإنك إذا رأيت سائك مكانه، فرحم الله رجلاً كسب طيباً؛ وأنفق قصداً؛ فضلاً ليوم فقره وفاقته، هيهات! هيهات! ذهبت الدنيا بحالتي مآلها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون؟! المعايينة؟ فكأن قد [حدثت]؛ إنه لا كتاب بعد كتابكم، ولا نبي بعد نبيكم، يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبعن آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

رحم الله امرئاً عرف ثم صبر، ثم أبصر فبصر، فإن أقواماً عرفوا فانتزع الجزع أبصارهم، فلا هم أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا، اتقوا هذه الأهواء المضلة، البعيدة من الله، التي جماعها الضلالة، مياعداها النار لهم محنة، من أصابها أضلته، ومن أصابته قتلتها، يا ابن آدم دينك دينك فإنه لحكمك ودمك، إن يسلم لك دينك، يسلم لك لحكمك ودمك، وإن تكن الأخرى، فنعوذ بالله فإنها نار لا تطفئ، وجرح لا يبرأ، وعذاب لا ينفذ أبداً، ونفس لا تموت، يا ابن آدم إنك موقوف بين يدي ربك ومرتهن بعملك، فخذ ممّا في يديك لما بين يديك، عند الموت يأتيك الخبر، إنك مسئول ولا تجد جواباً، إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همّه.

ثم روى ابن بطة العكبري في: «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» المسماة بـ«الإبانة الكبرى» (٨٧٤) عن عبد الملك بن جدّان، أن عبد الواحد بن زيد والحسن البصري دخلا المسجد يوم الجمعة فجلسا، فدمعت عين الحسن، فقال عبد الواحد: يا أبا سعيد ما يبكيك؟! فقال: «أرى قولاً ولا أرى فعلاً، معرفة بلا يقين، أرى رجلاً ولا أرى عقولاً، أسمع أصواتاً ولا أرى أنيساً، دخلوا ثم خرجوا، حرّموا ثم استحلّوا، عرفوا ثم أنكروا، وإنما

دين أحدهم لعقة على لسانه، ولو سألته هل يؤمن بيوم الحساب لقال: نعم، كذب ومالك يوم الدين، ما هذه من أخلاق المؤمنين، إنَّ من أخلاق المؤمنين قوَّة في الدين، وجزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم وقصدًا في غنى، وتجملاً في فاقة، ورحمة للمجهود، وعطاء في حق، ونهيًا عن شهوة، وكسبًا في حلال، وتحرجًا عن طمع، ونشاطًا في هدى، وبرًا في استقامة، لا يحيف على من يُغض، ولا يَأْثُم في الحب، ولا يدَّعي ما ليس له، ولا يَنابز بالألقاب، ولا يشمت بالمصائب، ولا يضرُّ بالجار، ولا يهمز، في الصلاة مُتَخَشَّع، وإلى الزكاة متسرَّع، إن صمت لم يغمُ الصمت، وإن ضحك لم يغلُ صوته، في الزلازل وقور، وفي الرخاء شكور، قانع بالذي له، لا يجمع في الغيظ، ولا يغلبه الشَّح، يُخالط النَّاس ليعلم، ويصمت ليسلم، وينطق ليفهم، إن كان مع الذاكرين لم يكتب من الغافلين، وإن كان من الغافلين كتب مع الذاكرين، وإن بُغي عليه صبر، حتى يكون الله هو الذي ينتقم له يوم القيامة.

• كلام في غاية القوة في القاعدة:

• قال ابن القيم في: «الداء والدواء» من ص (٥٧) وما بعدها في كلام طويل جدًا استعصته بما قدَّمته في هذه القاعدة العاشرة، ثمَّ الآن أذكر بعض كلامه:

«فصل: وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في

الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله، فمنها: حرمان العلم، فإنَّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفى ذلك النور [قال تعالى: ﴿وَأَنقُضْ اللَّهُ رِيعَكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكُلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ولَمَّا جلس الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقّد ذكائه وكمال فهمه فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية»، وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأنَّ العلم فضل وفضل الله لا يُؤْتاه عاصٍ

ومنها : حرمان الرزق ، وفي المسند قال ﷺ : «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ»^(١) :

ومنها : وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله ، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها ، لم تف بتلك الوحشة ، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة ؛ «وما لجرح بميت إيلام» ، فلو لم تُترك الذنوب إلا حذرًا من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حريًا بتركها .

ومنها : الوحشة التي بينك وبين النَّاسِ ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت الوحشة بُعدَ منهم ومن مجالستهم ، وحُرِّمَ بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بُعدَ من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة وتستحكم ، فتقع بين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه .

ومنها : تعسير أموره عليه ، فلا يتوجَّه لأمرٍ إلا ويجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه ؛ وهذا كما أنَّ من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا ، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عُسرًا ، وبالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه ، وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أُتِيَ ؟!

ومنها : أنَّ المعاصي توهن القلب والبدن ، إمَّا للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكليَّة ، وإمَّا وَهْنُهَا للبدن ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ فِي قَلْبِهِ ، وَكَلِمًا قَوِيَّ قَلْبُهُ قَوِيَّ بَدَنِهِ ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ الْعَاصِي -وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ- فَهُوَ أَوْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، فَتَخُونُهُ قُوَّتُهُ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَتَأْمَلُ قُوَّةَ فَارَسٍ وَالرُّومَ كَيْفَ خَانَتْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ؟!

ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصدَّ عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أخرى ، فيقطع عليه الذنب طريقًا ثالثة ، ثُمَّ رَابِعَةً وَهَلُم جَرَا .

(١) حديث حسن ومَرَّ تحقيقه ، رواه أحمد في «المسند» (٢٢٤٣٨) ، وابن ماجه في «سننه» (٤٠٢٢) .

ومنها : أَنَّ المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد ، وإنَّ البرَّ كما يزيد في العمر ، فالفجور يقصر العمر .

ومنها : وهو من أخوفها على العيد : أَنَّها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية مُصِرّاً عليها ، عازم على مواقععتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك .

ومنها : أَنَّهُ ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير المعصية له عادة ، حتى لا يستقبح من نفسه رؤية النَّاس له ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهلكة وتمام اللذة حتى يفخر أحدهم بالمعصية أَنَّهُ عملها ، وهذا الضرب من النَّاس لا يُعَافُونَ ، ويسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ : « كلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ : أَنْ يَسْتَرِ اللَّهَ الْعَبْدُ ، ثُمَّ يَصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ : يَا فُلَانُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، فَيَهْتِكُ نَفْسَهُ ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ »^(١) .

ومنها : أَنَّ كلَّ معصية من المعاصي هي ميراث عن أُمَّة من الأُمم التي أهلكها الله ﷻ فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود ، فالعاصي لا بس ثياب بعض الأُمم وهم أعداء الله ، وهي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النَّبِيِّ ﷺ قال : « بُعِثَ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي ، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ »^(٢) .

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٥١١٤ ، ٥١١٥) ، وأخرجه البخاري معلقاً غير موصول قبل حديث (٢٩١٤) ، وحسنه ابن حجر في «الفتح» ، وأورد السيوطي في «الجامع الصغير» (٣١٥٢) .

ومنها : أَنَّ المعصية سبب لهوان العبد على رَبِّهِ وسقوطه من عينه ، قال الحسن البصري : «هانوا عليه فعصوه ، ولو عَزَّوا عليه لعصمهم ، وإذا هان العبد على اللَّهِ لم يكرمه أحد ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] ، وإن عَظَّمهم النَّاسُ في الظاهر لحاجتهم إليهم ، أو خوفاً من شرِّهم ، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

ومنها : أَنَّ المعصية تُورث الذل ولا بد ، فَإِنَّ العزَّ كل العزِّ في طاعة اللَّهِ ، قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ [فاطر : ١٠] ؛ أي : فليطلبها بطاعة اللَّهِ ، فَإِنَّه لا يجدها إِلَّا في طاعته ، وكان دعاء السلف : «اللهم أعزني بطاعتك ، ولا تذلني بمعصيتك» ، وقال الحسين البصري : «إِنَّهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، إِنَّ ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم ؛ أبى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ من عصاه» ، وقال عبد اللَّهِ بن المبارك :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورَثُ الذَّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ النَّاسَ إِلَّا الْمَلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا؟

ومنها : أَنَّ المعاصي تُفسد العقل ، فَإِنَّ للعقل نوراً ، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بد ، وإذا طُفئ نوره ضعف ونقص ، قال بعض السلف : «ما عصى اللَّهُ أحدٌ حتى يغيب عقله» ، وَأَنَّهُ لو حضره عقله لحجزه عن المعصية ، وهو في قبضة الربِّ تعالى وتحت قهره ، وهو مطلع عليه ، وفي داره وعلى بساطة وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النهار ينهاه ، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!

[وحدیث النَّبِيِّ ﷺ قال : «ضرب اللَّهُ تعالى مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى

باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم^(١).

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨﴾ [غافر: ٧-٩]، فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله ﷺ الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة، إذ لا يتصف بصفات المدعوه بها والله المستعان.

• ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها، وقد مر رسول الله ﷺ بديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عُجِنَ بمياههم للنواضح^(٢)، لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات.

وقد ذكر الإمام أحمد في: «مسنده»^(٣) في ضمن حديث قال: «وُجِدَ فِي خَزَائِنِ

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٧٥٦٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢٤٥)، وصححه وقال: على شرط مسلم ولا أعرف له علّة ووافقه الذهبي، والترمذي في السنن (٢٨٥٩)، وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٣٧٨، ٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١).

(٣) قد مر من قبل تخريجه: «هذا ما ينبت في زمن العدل»، رواه أحمد في «مسنده» (٧٨٨٩).

بني أمية: حبة حنطة بقدر نواة التمر، وهي في صرة مكتوب عليها: هذا ما كان ينبت في زمن العدل»، وكثير من هذه الآفات أحدثها الله ﷻ؛ بما أحدث العباد من الذنوب.

● وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في «جامعه» عنه ﷺ أنه قال: «خلق آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»^(١).

● وإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة، ويخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيّه فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله^(٢)، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت حتى إنّ العصاة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها [يقشرها]، ويكون العنقود من العنب وقربع، وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس^(٣).

وهذه الأرض لما طُهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله التي محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أنّ العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض ما يُشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات، كما أنّ هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسب كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخراً، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره، فإنّه لما قرن العبد واستولى عليه، نزعَت البركة من عمره، وعمله، وقوله، ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت؛

(١) رواه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

(٢) رواه أبو داود في «سننه» (٤٢٨٢)، والترمذي (٢٢٣١، ٢٢٣٢)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٩٣٧)، والترمذي (٢٢٤١)، وأبو داود (٤٣٢١).

نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته، وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

● ومن عقوبات الذنوب: أنَّها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف النَّاس وأعلامهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم النَّاس، ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ أغير الخلق على الأمة، واللَّه سبحانه أشدَّ غيرة منه، كما ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غِيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّي»^(١)، وفي «الصحيح» أيضًا، أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْكُسُوفِ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أُمَّتُهُ»^(٢)، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَيْ عَلَى نَفْسِهِ»^(٣).

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، وإنَّه سبحانه - مع شدة غيْرته - يجب أن يعتذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه إغذارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال، فإنَّ كثيرًا ممَّن تشدَّ غيْرته من المخلوقين، تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إغذار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممَّن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسَّع في طرق المعاذير، ويرى عذرًا ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر،

(١) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) البخاري في «صحيحه» (٧٤٠٣)، ومسلم (٢٧٦٠).

وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق، وقد صح عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْغِيْرَةِ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يَبْغُضُهُ اللَّهُ، فَالَّتِي يُبْغِضُهَا الْغِيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيْبَةٍ»^(١)، وَإِنَّمَا الْمَمْدُوحُ اقْتِرَانُ الْغِيْرَةِ بِالْعَذْرِ، فَيُغَارَفُ فِي مَحَلِّ الْغِيْرَةِ؛ وَيَعْذَرُ فِي مَوْضِعِ الْعَذْرِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ الْمَمْدُوحُ حَقًّا فَالْغِيُورُ قَدْ وَافَقَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ فِي صِفَةِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَنْ وَافَقَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، قَادَتِهِ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزِمَامِهَا، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَذْنَتْهُ مِنْهُ وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا لَهُ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ كَلَّمَا اشْتَدَّتْ مَلَاسِئَتُهُ لِلذَّنُوبِ أُخْرِجَتْ مِنْ قَبْلِهِ الْغِيْرَةُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعَمُومِ النَّاسِ، وَقَدْ تَضَعَفَ فِي الْقَلْبِ جَدًّا، حَتَّى لَا يَسْتَقْبِحَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَبِيْحَ لَا مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، فَقَدْ دَخَلَ فِي بَابِ الْهَلَاكِ.

ومثل الغيرة في القلب كمثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً، ولم يجد دافعاً، فتمكّن فكان الهلاك، ومثلها مثل صياصي الجاموس التي يدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوّه اهـ.

• إجماع في المسألة:

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٨٣):

«وقد أجمع السائر إلى الله، أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مِنْهَا حَتَّى تَصَلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصَلَ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَحِيْحَةً سَلِيْمَةً، وَلَا تَكُونَ صَحِيْحَةً سَلِيْمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاوُّهَا فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشَفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنْ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ.

فمن عقوبات الذنوب والمعاصي: أَنَّهَا تَصْرِفُ الْقَلْبَ عَنْ صِحَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَى مَرَضِهِ وَانْحِرَافِهِ، فَلَا يَزَالُ مَرِيضًا مَعْلُولًا لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ؛ فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذَّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ، بَلِ الذَّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَوَائُهَا، وَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا بِتَرْكِهَا، وَكَمَا أَنَّ مَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنْ

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٢٢٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣١٣)، وأحمد في «المسند» (٢٣٦٣٧، ٢٣٦٤٠، ٣٦٤٢)، والنسائي في «السنن الصغرى» (٢٥٥٨).

الهُوَى' كانت الجنة مأواه فكذا يكون قلبه في هذه الدار جنة عاجلة ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾^(١٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(١٨) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(١٩) [النازعات: ٣٧-٤١]، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٢٠) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(٢١) [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرّات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار» اهـ.

● الاستجابة لله وللرسول هي دواء القلوب من أمراضها:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ^ط وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٢٩٦):

«يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم، وهو الاستجابة لله وللرسول؛ أي: الانقياد لما أمرا به، والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ^ط﴾ هو وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائده وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^ط فإياكم أن تردّوا أمر الله أول ما يأتيكم؛ فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه

بعد ذلك ، وتختلف قلوبكم ، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه ، يقلب القلوب أنَّى شاء اهـ .

روى أحمد في «مسنده» (١٣٦٣٠ ، ٢٦٠١١ ، ٢٦٣٩٩) وهو عند البخاري (٧٣٩١) مختصراً عن أنس بن مالك قال : «كان رسول الله ﷺ يكثُر أن يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، فقال له أصحابه وأهله : يا رسول الله ! أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به ؟ قال : «إنَّ القلوب بيدي الله ﷻ يقلبها» وفي رواية : «ما من قلب إلَّا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ربِّ العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه ، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، والميزان بيدي الله الرحمن يخفضه ويرفعه» ، وهو عند ابن ماجه أيضاً في «السنن» (١٩٩) ، وعند مسلم في «صحيحه» (٢٦٥٤) بلفظ : «إنَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفه كيف يشاء ، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» .

والحديث عند البخاري (٧٣٩١) في كتاب التوحيد باب مُقلب القلوب ، وقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ [الأنعام : ١١٠] عن عبد الله بن عمر قال : «أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف : «لا ومقلب القلوب»» .

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٤١٦ / ١٣) :

«قال الراغب : تقلب الشيء تغييره من حال إلى حال ، والتقلب التصرف ، وتقلب الله القلوب والبصائر صرفها من رأي إلى رأي ، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ نصرها كيف نشاء ، ومعنى الحديث : أنَّ الله يتصرف في قلوب عباده بما شاء ، لا يمتنع عليه شيء منها ، ولا تفوته إرادة .

قال البيضاوي : في نسبة تقلب القلوب إلى الله إشعار بأنَّه يتولَّى قلوب عباده ولا يكلها إلى أحد من خلقه .

ويستفاد من الآية والحديث : أنَّ أعراض القلوب من إرادة وغيرها تقع بخلق الله اهـ .

وقال ابن كثير في: «تفسيره» (٣/ ٢٠٧):

«وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] عن ابن عباس قال في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر، وقال مجاهد: ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

قال ابن عباس: أخبر الله ما العباد قائلون قبل ان يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه» اهـ.

● ما أنقص عقل من باع الدرّ بالبعر، والمِسْك بالرجيع ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون، وفساد المعتقد مجون.

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٨٧، وما بعدها):

«ومن عقوبات الذنوب والمعاصي: أنها تؤثر بالخاصية في نقصان العقل، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرينه، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي العقول والألباب؛ كقوله: ﴿وَأَتَقُونَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٩٦]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلًا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه؟ ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قرب، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وبسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، فأى عقل لمن أثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كلها كأنها حلم لم يكن، على ذلك النعيم المقيم والفوز العظيم؟! وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيشي، فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل

عاصينا، ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون، فما أنقص عقل من باع الدرّ بالبعر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرًا اهـ.

● قال الحافظ الفقيه ابن حزم في: «الإحكام في أصول الأحكام» (٧/١):

«ومنها: قوة العقل التي تعين النفس المميّزة على نصر العدل، وعلى إثارة ما دلت عليه صحة الفهم، وعلى اعتقاد ذلك علمًا، وعلى إظهاره باللسان وحركات الجسم فعلًا، وبهذه القوة التي هي العقل تتأيد النفس الموافقة لطاعته على كراهيته الحود عن الحق، وعلى رفض ما قاد إليه الجهل والشهوة والغضب المولد للمعصية، وحمية الجاهلية، فمن اتبع ما أنار له العقل الصحيح نجا وفاز، ومن عاج عنه ومال هلك، وربّما أهلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال بعض السلف: «تري الرجل لبيبا داهيا فطنا ولا عقل له، فالعاقل من أطاع الله ﷻ»، قال أبو محمد بن حزم: هذه كلمة جامعة كافية؛ لأنّ طاعة الله ﷻ هي جماع الفضائل واجتناب الرذائل، وهي السيرة الفاضلة على الحقيقة التي تخيرها لنا واهب التعم لا إله إلا هو، فلا فضيلة إلا اتباع ما أمر الله ﷻ، أو حض عليه، ولا رذيلة إلا ارتكاب ما نهى الله عنه أو نزه منه، وأمّا الكيس في أمور الدنيا لا يبالي المرء ما وافق استجلاب حظه فيها، من علو صوت أو عرض جاه، أو نمو مال، أو نيل لذة من طاعة أو معصية^(١) فليس ذلك عقلا؛ بل هو سخف ونقص شديد وسوء اختيار، وقائد إلى هلاك في دار الخلود، وقد شهد ربنا تعالى أن متاع الدنيا غرور، وقد علمنا أنّ تارك الحق ومتبع الغرور سخيف الاختيار، ضعيف العقل، فاسد التمييز؛ وبرهان ذلك: أنّ كلّ تمييز في إنسان بان به عن البهائم، فهو

(١) روى البخاري في «صحيحه» (٢٠٥٩) قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان، لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟!».

يشهد أنَّ اختيار الشيء القليل في عدده، الضعيف في منفعته، المشوب بالآلام والمكاره، الفاني بسرعة، على الكثير في عدده العظيم في منفعته، الخالص من الكدر والمضار، الخالد أبداً، حمق شديد وعدم للعقل البتة» اهـ.

• روى أبو نعيم في: «حلية الأولياء» (١٥٦٣٥) عن أبي عمرو الزجاجة أنه قال: «كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه العقول والطباع، فردّهم النبي ﷺ إلى اتباع الشرائع، فالعقل الصحيح ما يستحسن محاسن الشريعة ويستتبع ما تستتبعه».

• وروى أبو نعيم في «الحلية» (١٥١٠١) عن عمرو بن سلمة أبي حفص، أنه سئل: من الرجال؟ فقال: «القائمون مع الله بوفاء العهود، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعدّوه في ديوان الرجال».

• البركة ضد اللعنة:

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٩٠):

«فصل: ومن عقوبات الذنوب والمعاصي: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة، وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممّن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْوِاسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

وضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله، أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به، وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة، ولقد لعن عدوّه إبليس وجعله أبعد خلقه منه [﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١٧﴾ وَلَا أَضِلُّهُمْ وَلَا مَعِيَنُهُمْ وَلَا أَمُرُّهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ ءَاذَاتِ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرَّةَهُمْ فَلْيَغْدِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ

يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿[النساء: ١١٧-١١٩]﴾، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله قربهُ منه واتصاله به، فمن هاهنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بكرة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عصي الله فيه، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه، ليس له؛ فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه إلا ما أطاع الله به. ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين ونحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم، وفي الترمذي عنه عليه السلام قال: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»^(١) اهـ.



(١) رواه الترمذي في سننه (٢٣٢٣)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١١٢)، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٤٢٨١)، وحسنه.

القاعدة الحادية عشرة

«الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق والعمل به تحقيقاً وتنفيذاً، والثاني: البصيرة في الدين، فبهما يكتمل إدراك الحق من الباطل ويتم تنفيذه، ويمنع منهما عمى القلب والبصيرة أو ضعفهما، ومدار المنع على معصية الله»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٩٨ - ١٠١):

«فصل: ومن عقوباتها: أنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد؛ فإذا عمي القلب وَضَعُفَ فَاتِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْهُدَى وَقُوَّتِهِ عَلَى تَنْفِيذِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ؛ بِحَسَبِ ضَعْفِ بَصِيرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِي مَدَارُهُ عَلَى أَصْلَيْنِ: مَعْرِفَةُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِيثَارُهُ عَلَيْهِ، وَمَا تَفَاوَتْ مَنَازِلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِقَدْرِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَهُمَا اللَّذَانِ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥]، فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال التنفيذ».

قال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٦):

«يقول تعالى مُخْبِرًا عَنْ فَضَائِلِ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْبِيَائِهِ الْعَابِدِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾؛ يَعْنِي بِذَلِكَ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْقُوَّةُ فِي الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ، وَالْبَصِيرَةُ النَّافِذَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ يَقُولُ: أُولَى الْقُوَّةِ، ﴿وَالْأَبْصَرُ﴾ يَقُولُ: الْفَقْهُ فِي الدِّينِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾؛ يَعْنِي: الْقُوَّةَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَالْأَبْصَرُ﴾ يَعْنِي: الْبَصَرَ فِي الْحَقِّ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أُعْطُوا قُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ وَبَصَرًا فِي الدِّينِ، وَقَالَ النَّحَّاسُ: أَمَّا ﴿وَالْأَبْصَرُ﴾ فَمُتَّفَقٌ عَلَى تَأْوِيلِهَا أَنَّهَا الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ» اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٩٧)، (٤/ ٩٣، ٩٤):
 «والحق المبين: أنَّ كمال الإنسان أن يعبد الله علماً، وعملاً، كما أمره ربه،
 وهؤلاء هم عباد الله، وهم المؤمنون والمسلمون، وهم أولياء الله المتقون،
 وحزب الله المفلحون، وجند الله الغالبون، وهم أهل العلم النافع والعمل
 الصالح، وهم الذين زكّوا أنفسهم وكملوها، كملوا القوة النظرية العلمية، والقوة
 الإدارية العملية،، ومن المستقر في أذهان المسلمين أنَّ ورثة الأنبياء
 وخلفاء الرسل هم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوة إلى الله والرسول،
 فهؤلاء أتباع الرسول حقاً، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت
 الماء فأنبثت الكلاً والعشب الكثير، فزكت فيها نفسها وزكى الناس بها، وهؤلاء
 هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين، والقوة على الدّعوة، ولذلك كانوا ورثة
 الأنبياء، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى
 وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله،
 فبالبصائر يدرك ويُعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه
 الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين والبصر والتأويل، ففجّرت من
 النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورُزقت فهمًا خالصًا، كما قال
 أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقد سُئل: هل خَصَّكم رسول الله ﷺ بشيء
 دون الناس؟ فقال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلّا فهمًا يؤتاه الله عبداً في
 كتابه»^(١). اهـ.

• ليس كل سوداء تمرّة، ولا كل بيضاء شحمة:

ثمَّ قال ابن القيم تكملة للنقل السابق:

• انقسام الخلق في التبصّر في الدين وتنفيذ الحق أربعة أقسام:

«وانقسم النَّاس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (١١١، ٣٠٤٧).

وأكرمهم على الله - وهم الأقوياء في تنفيذ الحق، أصحاب البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه - .

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، الذين رؤيتهم قَدْزَى العيون، وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيّقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبته إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله منه .

القسم الرابع: من له قوة وهمّة وعزيمة، لكنّه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميّز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرّة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً .

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِكَايِلَتَنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر سبحانه أنّ بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر، الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين - على أنّ مَنْ عداَهُمْ فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه؛ حتّى يُوصي بعضهم بعضاً، ويرشده إليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً، فمعلوم أنّ المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدرك الحق كما ينبغي وتضعف قوّته وعزمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتّى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره؛ فيدرك الباطل حقاً والحقّ باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، فينعكس سيره ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلّة، التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها،

وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقاءه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها، لكانت داعية إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجלוه وتصلقه وتقويه وتثبتته، حتى يصير كالمرآة المصقولة في جلائها وصفائها، فيمتلئ نوراً، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مُسْتَرِقَّ السمع من الشَّهْبِ الثواقب، فالشيطان يُفَرِّقُ من هذا القلب أشدَّ من فَرَقِ الذئب من الأسد، حتى إنَّ صاحبه ليصرع الشيطان فيخِرَّ صريعاً، فتجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسي وبه نظرة من الإنس.

فيا نظرة من قلبٍ خُرِّ مُنَوَّرٍ يكادُ لها الشيطان بالنور يُحَرِّقُ أفيستوي هذا القلب وقلبٌ مُظْلَمَةٌ أَرَجَاؤُهُ، مختلفة أهواؤه، قد اتخذها الشيطانُ وطنه، وأعدَّه مسكنه، إذا تَصَبَّحَ بطلعته حيّاة، وقال: فُديت من قرين لا تفلح دنياه ولا أخراه؟

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء فإنني وأنت جميعاً في شقا وهوان

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَبْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩]، فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره، وهو كتابه الذي أنزله على رسوله فأعرض عنه، وعَمِيَ عنه، وعشيت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه؛ قِيضَ الله له شيطاناً عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيرته الذي هو ببس المولى وببس العشير. «اهـ».



القاعدة الثانية عشرة

«أصل الذنوب والمعاصي نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما اللذان ابتلى الله بهما أبوي الجن والإنس، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب، وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سُمي حقًا للخلق؛ لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم».

قال الله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِى وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْخَيَاطَةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْاِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْاِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وروى البخاري في «صحيحه» (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».

روى البخاري هذا الحديث في «صحيحه» في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر العسقلاني في: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١٣)/

٢٨٧ - ٢٩١) مختصرًا:

«واستدل بهذا الحديث على أن لا حكم قبل ورود الشرع، وأن الأصل في

الأشياء عدم الوجوب، ووجه ذلك في قوله ﷺ: «دعوني ما تركتكم»؛ أي: مدة تركي إياكم بغير أمر بشيء ولا نهى عن شيء، قوله ﷺ: «فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»، وهذا النهي عام في جميع المناهي، والتحقيق أن الأمر باجتناب المنهي على عمومته؛ ما لم يعارضه إذن في ارتكاب النهي كأكل الميتة للمضطر، وقال الفاكهاني: لا يُتصوّر امتثال النهي اجتناب النهي حتى يُترك جميعه، فلو اجتنب بعضه لم يعد ممثلاً، بخلاف الأمر المطلق، فإن من أتى بأقل ما يصدق عليه الاسم كان مُمْتَثِلاً. انتهى ملخصاً [يعني: كلام الفاكهاني]، وقد أجاب هنا ابن فرج: بأن النهي يقتضي الأمر فلا يكون ممثلاً لمقتضى النهي حتى لا يفعل واحداً من آحاد ما يتناوله النهي، بخلاف الأمر لأنه على عكسه.

وقوله ﷺ: «وإذا أمرتكم بشيء» وفي رواية مسلم: «بأمر»، «فأتوا منه ما استطعتم»؛ أي: افعلوا قدر استطاعتكم، قال النووي: هذا من جوامع الكلم وقواعد الإسلام، ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن منها أو شرط فليأتي بالمقدور منه، وكذا الوضوء، وستر العورة، وحفظ بعض الفاتحة، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل، والإمساك في رمضان لمن أفطر لعذر ثم قدر في أثناء النهار، إلى غير ذلك، وقال غيره: فيه أن من عجز عن بعض الأمور لا يسقط عنه المقدور، وعبر عنه بعض الفقهاء بأن «الميسور لا يسقط بالمعسور»، كما لا يسقط ما قدر عليه من أركان الصلاة بالعجز عن غيره.

قال ابن فرج في: «شرح الأربعين النووية» قوله ﷺ: «فاجتنبوه» هو على إطلاقه حتى يوجد ما يبيحه، كأكل الميتة وشرب الخمر عند الإكراه، والأصل في ذلك جواز التلفظ بكلمة الكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان كما نطق به القرآن: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] انتهى.

والتحقيق: أن المكلف في ذلك كله ليس منهياً في تلك الحال، قال ابن فرج: بخلاف التداعي، فإنه ثبت النهي عنه نصاً في «صحيح مسلم» على الخمر قال ﷺ:

«أنَّه ليس بدواء ولكنه داء»^(١) ولأبي داود عن أبي الدرداء قال ﷺ: «تداووا ولا تداووا بحرام»^(٢)، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتِي فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهَا»^(٣).

ثُمَّ [قال ابن حجر]: والتحقيق: أَنَّ الأمرَ باجتنب المنهي على عمومهِ ما لم يعارضه إذن في ارتكاب المنهي كأكل الميتة اهـ.

قلت: لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وهذا إقرار من ابن حجر في التداوي - عند الضرورة القصوى والحاجة الملحة التي قاعدتها: «ما أبيح للضرورة يُقدر بقدرها»، و«الحاجة يُنزل منزلة الضرورة عامة كانت الحاجة أو خاصة» - بما حَرَّمَ الله ورسوله، وهذا الذي أقره الفقيه الأصولي ابن قدامة صاحب «المغني» حيث بين في كتابه «روضة الناظر وجنة المناظر» على جواز القياس على الرخص فقال:

«فصل في أقسام القياس المستثنى من قاعدة القياس: والمستثنى عن قاعدة القياس منقسم إلى ما يعقل معناه، وإلى ما لا يعقل معناه، فالأول: يصح أن يُقاس عليه فيه العلة كاستثناء العرايا للحاجة»^(٤)، فلا يبعد قياس العنب على الرطب في

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٨٤)، ولفظ الحديث: «يا رسول الله! إنَّ أرضنا أعنابًا نعتصرها فنشرب منها قال: «لا» فراجعته، قلت: إنا نستشفى به للمريض، قال: «إنَّ ذلك ليس بشفاء ولكنه داء» ورواه أحمد في «المسند» (١٨٧٨٧).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وأحمد في «المسند» (١٨٤٥٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٣٨٦٦)، واللفظ له، قال المنذري في: «مختصر السنن» (٧/ ١٦) على هامش «عون المعبود»: «في إسناد إسماعيل بن عيَّاش وفيه مقال».

(٣) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم قبيل حديث (٥٦١٤)، وأخرجه موصولًا الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٣/٩) رقم (٩٧١٧)، وحسنه ابن حجر هنا، والحاكم في «المستدرک» (٧٥٠٩) موقوفًا على عبد الله بن مسعود ؓ.

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٢١٨٤)، ومسلم (١٥٣٩، ١٥٤٢) قال: «رخص رسول الله ﷺ في بيع العرايا بالرطب أو التمر» والرطب إذا ييس قل وزنه وكيله فلا يجوز بيعه لأنهما سلعتان ربوتان، ولكن رخص فيه النَّبِيُّ ﷺ، فقاوسوا العنب مع الزبيب عليهما.

ذلك إذا تبين أنه في معناه، وكأكل الميتة للمضطر؛ صيانة لحياته، فيقاس عليه بقية المحرّمات إذا اضطر إليها» اهـ، وانظر كتابي المهم: «منارات على سبيل القياس الشرعي فسطاط الدين وعصب الاجتهاد» ص (١٥٧-١٥٨) pdf على موقعي .

أمّا قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فقليل في تفسير هذه الآية، كما قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي في: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ص (٢٤٩):

«المراد بالإثم جميع المعاصي التي تُؤثّمُ العبد؛ أي: توقعه في الإثم والحرّج من الأشياء المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، فهي الله عباده عن اقرار الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلّا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف [؛ لعموم القاعدة المجمع عليها: «كل ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب»]؛ وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب كالكبر، والعجب، والرياء، ونحو ذلك، حتّى إنّ يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثمّ أخبر تعالى بعد هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠] أنّ الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلّت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يُعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته» اهـ.



القاعدة الثالثة عشرة

«المعاصي القلبية: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرّين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرّب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنّما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضاً على مرض، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة، والتثبيط عن الطاعة والإقعاد عنها، وجعل القلب أصمّ لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، وخسف القلب، ومسح القلب، ومكر الله بالماكر، وحجاب القلب عن الرّب، والمعيشة الضنك، والخروج عن الصراط المستقيم».

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وقال: ﴿وَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]، وقال: ﴿فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٧٤]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَفَلَبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٣]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ

أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبِمَحْ أَلَّهِ الْبَاطِلُ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿الشورى: ٢٤﴾، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ﴿الأنفال: ٢٤﴾، وقال: ﴿وَلَا نُنْجِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿الكهف: ٢٨﴾، وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٧٩﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿الحج: ٤٦﴾، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿محمد: ٢٤﴾، وقال: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿البقرة: ٢٢٥﴾، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ ﴿الأنعام: ٤٦﴾، وقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ﴿نصلى: ٥﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْجٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ ﴿آل عمران: ٧﴾، وقال: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَلَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلَسِيَةً يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ﴿المائدة: ١٣﴾، وقال: ﴿فَرَأَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ ﴿المائدة: ٥٢﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ﴿الأنعام: ٢٥﴾، ﴿وَأَرْزَأَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدَّدُونَ﴾ ﴿التوبة: ٤٥﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿الصف: ٥﴾، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾

[الزمر: ٢٢].

• فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ:

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٦٢ / ٢٠):

«قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾؛ أي: مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: أمالها عن الهدى، وقيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الطاعة ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهداية، وقيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الإيمان ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الثواب، وقيل: لَمَّا تَرَكُوا مَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ احْتِرَامِ الرُّسُولِ ﷺ وَطَاعَةِ الرَّبِّ، خَلَقَ اللَّهُ الضَّلَالَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى فَعْلِهِمْ» اهـ.

قال الراغب الأصفهاني في : «المفردات في غريب القرآن» (ص : ٤١٢) :

«قَلْبُ الشَّيْءِ تصريفه وصرفه عن وجهه إلى وجهه، كقلب الثوب وقلب الإنسان أي صرفه عن طريقته، والانقلاب الانصراف، قال تعالى: ﴿أَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقلب الإنسان قيل سُمِّيَ به لكثرة تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة والخوف والجبن وغير ذلك» اهـ.

وروى البخاري في «صحيحه» (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه -وفي رواية- يوشك أن يواقع، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

قال النووي في : «شرح مسلم» (٢١٠ / ١١) مختصراً :

«أجمع العلماء على عظم وقع هذا الحديث وكثرة فوائده، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وسبب عظم موقعه أنه ﷺ نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرهما، وأنه ينبغي ترك الشبهات؛ فإنه لحماية دينه وعرضه، وحذر من مواقع الشبهات، وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى، ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب فقال ﷺ : «وإن في الجسد مضغة» إلى آخره فبين ﷺ : «الحلال بين والحرام بين»، . . . ؛ والمضغة قطعة من اللحم، والمراد : تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد، مع أن صلاح القلب وحمايته من الفساد تابعان للقلب، وفي هذا الحديث التأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد» اهـ.

وقال ابن حجر في : «فتح الباري» (١ / ١٦٨) :

«والمراد بالمحارم: فعل المنهي المحرم، أو ترك المأمور الواجب، ولهذا وقع في رواية أبي فروة التعبير بالمعاصي بدل المحارم إلا للتنبيه على صحة ما بعدها، وفي إعادتها وتكريرها دليل على عظم شأن مدلولها، وسُمِّي القلب قلباً لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص ما في البدن وخالص كل شيء قلبه أو لأنه وُضع في الجسد مقلوباً، وخصَّ القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفي الحديث تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه، والإشارة أن لطيب الكسب أثراً فيه، والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه، ويُستدل بالحديث على أن العقل في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] قال المفسرون: أي: عقل، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره» اهـ.

أقول -والله تعالى أعلم-: هناك ربط ونسجٌ وصلة ممتدة بين بداية الحديث ونهايته، فأول الحديث بين الحلال والحرام وظهورهما ووضوحهما، ثم هذه المشتبهات التي بينهما والتي لا يُعلم حالها أحلال هي أم حرام؟ وذلك لغالب الناس، ولا يعلمها إلا القليل من أهل العلم، ثم انهى الحديث بجلالة وعظم القلب السليم والمستقيم الذي يعلم الحلال فيأتيه والحرام فلا يأتيه بل يجتنبه بالكلية، وأعرض عن المشتبهات حتى لا يقع في الحرام، وعليه، فلو فسد القلب لنتج العكس من ذلك، فكان صلاح الدين والدنيا والأمر كلها بصلاح القلب، ومن هنا شدد ابن القيم على الأمراض القلبية وكيفية الشفاء منها، وذلك بالتداوي بتقوى الله والأعمال الصالحة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وروى مسلم في «صحيحه» (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب عُودًا عُودًا، فأَيُّ قلبٍ أُشربها نُكثت فيه نُكْته سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكثت فيه نُكْته بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُربادًا كالكوز مُجَحِّيًا لا يعرف معروفًا ولا يُنكر منكرًا، إلا من أُشرب هواه».

قال النووي في : «شرح مسلم» (٢/ ٣٣٢) :

«قال صاحب التحرير: معنى الحديث: أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز المائل، فإذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك» اهـ.

وقال أبو العباس القرطبي في : «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١/ ٢٤٩ - ٢٥٠) :

«فمعناه: أن الفتن تتوالى واحدة بعد أخرى كنسج الحصار عودًا بإزاء عود، وكما يناول مهية القضان للناسج للحصار عودًا بعد عود، يعني: أن الفتنة كلما مضت عادت مرة أخرى، وقوله ﷺ: «أشربها»؛ أي: حلّت فيه محل الشراب؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]؛ أي: حبّ العجل.

وقوله ﷺ: «على قلبين أبيض مثل الصفا» وليس تشبيهًا بالصفا من جهة بياضه، ولكن من جهة صلابته على عقد الإيمان، وسلامته من الخلل والفتن، إذ لم يلصق به ولم يؤثر فيه، كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، بخلاف القلب الآخر الذي شبهه بالكوز الخاوي؛ لأنه فارغ من الإيمان والأمانة.

وقوله ﷺ: «والآخر أسود مرّباذا» والربدة: لون بين الأسود والغبرة، وقيل الكدرة، فهي شيء من بياض يسير يخالطه السواد كلون أكثر النعام.

وقوله: «الكوز مَجْحِيًا»؛ أي: المائل، ولا أحسبه أراد بميله إلا أنه منخرق الأسفل، شبه به القلب الذي لا يعي خيرًا، ولا يثبت فيه، كما لا يثبت الماء في الكوز المنخرق، وقد فسّره سياق الكلام حيث قال: «لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» اهـ.

• قال ابن القيم في : «الداء والدواء» ص (١٢٣)، وما بعدها مختصرًا :

«والمعنى: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب الذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم

والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أنَّ العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٧]، وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، وقال: ﴿عَبَسَ وَقَوَّلًا﴾ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١، ٢]، وإنما المراد أنَّ العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى أنَّ عمى البصر بالنسبة إليه كالعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١)، وقوله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيتصدق عليه»^(٢)، ونظائره كثيرة، والمقصود: أنَّ من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم.

والخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل السافلين وصاحبه لا يشعر؛ وعلامة الخسف به أنه لا يزال جواءً حول السفليات والقاذورات والردائل، كما أنَّ القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جواءً حول العرش، مع البعد عن البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق، قال بعض السلف: «إنَّ هذه القلوب جواءٌ، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحش».

ومنها: مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي يشابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على خلق قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به.

ومنها: ما يمسخ على خلق قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب وفيه ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ

(١) رواه البخاري (٦١١٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩).

بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨] منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الجنائزير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوَّس في ثيابه كما يتطوَّس الطاووس ومنهم من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الذئاب، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغبي بالحُمُر تارة وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنًا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيًا يراه المتفرِّسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كلُّ أحد، ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة، فتقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام، فيقلب الله ﷻ الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟ وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء النَّاس عليه؟ ومغرور يستر الله عليه؟ ومستدرج بنعم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة! اهـ.



القاعدة الرابعة عشرة

«وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يُقال: إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرِفَ وَيُعْبَدَ وَيُوحَّدَ؛ وَلَا يُعْصَى وَيَكُونُ الدِّينَ كُلَّهُ لِلَّهِ؛ وَالطَّاعَةَ كُلَّهَا لَهُ؛ وَالِدَعْوَةَ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرَ: أَنْ يُعْرِفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ، وَأَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ»

قلت: هذا ما قاله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو تأصيل كُلِّ لُصْدِ كُلِّ ذَنْبٍ وَمَعْصِيَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

قال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٢٣١):

«قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ أي: بالعلم والعمل الصالح، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عِلْمٍ وَعَمَلٍ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ مَقْبُولٌ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؛ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: أَنَّهُ رَسُولُهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ» اهـ.

وفي سورة التوبة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٣١١):

«بِالْهُدَى» وهو العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمدا ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل، في أسماء الله وأوصافه وأفعاله وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان، من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة، والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة، المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان؛ بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيء لا يضر إلا صاحبه، فوعده الله لا بد أن يُنجزه، وما ضمنه الله تعالى لا بد أن يقوم به» اهـ.

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٢٦٩):

«أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء» اهـ.

• بيان أن الشرك أعظم المعاصي والذنوب الكبار على الإطلاق:

ذكر ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ١٣٣) نص الآية ثم قال:

«وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَكْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدَى وَالْقَلْبَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال

تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط؛ وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، بل هو رأس العدل وقوامه، وأنَّ الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات، فتأمل هذا الأصل حقَّ التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، فيما فرضه على عباده، وحرَّمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي، فلمَّا كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود، كان من أكبر الكبائر على الإطلاق اهـ.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٨٣٤):

«أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السموات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما، وأنزل الأمر وهو الشرائع الكونية والقدرية، التي يدبر بها الخلق؛ وكل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء.

فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة، وأسمائه الحسنى، وعبودوه، وأحبَّوه، وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون اهـ.



القاعدة الخامسة عشرة

«من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، والكمال المطلق من جميع الوجوه، والعبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» ص (١٤١ - ١٤٣):

«فصل: فأما الشرك في الإرادات والنيّات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيّته وإرادته، والإخلاص: أن يُخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيّته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء [قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ صَطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور فنقول ومن الله وحده نستمد الصواب: حقيقة الشرك: هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ، فعكس من نكس الله قبله، وأعمى عين بصيرته، وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهاً، والتشبيه تعظيماً وطاعة، فالمشرك مُشَبَّهٌ للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية.

● فَإِنَّ خَصَائِصَ الْإِلَهِيَّةِ: التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع؛ وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً -فضلاً عن غيره- شبيهاً لمن له الخلق والأمر كله، فأزمت الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لم أعطى، ولا معطي لما منع، ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢٢]. فَمِنْ أَقْبَحِ التشبيه: تشبيه هذا الفاجر الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات، ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٥] إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

● ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة والاستغاثة، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده، ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبه له ولا مثيل له ولا ندّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمّنه غاية الظلم؛ أخبر سبحانه عباده أنّ لا يغفره، مع أنّه كتب على نفسه الرحمة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

● ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبه به في خالص حقّه، وهذا من المحال ان تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل.

ولكن غيّرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم

عنها [روى مسلم في «صحيحه» عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبيلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان»^(١)، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت لهم الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نوراً على نور، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، إذا عُرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به، ومنها التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به، ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به، ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا جانب التشبيه.

وأما جانب التشبيه به: فمن تعاضم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به، خوفاً ورجاءاً والتجاءً واستعانة؛ فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويذلّه غاية الذلّ، ويجعله تحت أقدام خلقه وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «يقول الله ﷻ: العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته»^(٢).



(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٨٦٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٧٣٨٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٢١٧٤)، والحاكم في «المستدرک» (٢٠٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

القاعدة السادسة عشرة

«الْقُدُّوسُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَهُوَ مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِكُلِّ كَمَالٍ وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَمِنْ أَشَدِّ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمَسِيءَ بِهِ الظَّنُّ هُوَ خِلَافُ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَنُّ بِمَا يَنَاقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَهَذَا قَدْ حُذِرَ فِي الْأُلُوْهِيَةِ عَظِيمٌ»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» ص (١٤٣) وما بعدها) مختصراً:

«فصل: إذا تبين هذا، فهانئنا أصل عظيم بكشف سر المسألة وهو: أن أعظم

الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن بما يناقض أسماءه وصفاته؛ ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء؛ بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وقال سبحانه لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أَيْفَكَاءَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧]؛ أي: فما ظنكم أن يُجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حين عبدتم معه غيره؟! وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، وهو العالم بتفاصيل الأمور؛ فلا يخفى عليه خافية من خلقه، وهو الكافي لهم وحده، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم محتاجون إلى من يُعرفهم أحوال

الرعية وحوائجهم، ومن يعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم.

فأمّا القادر على كل شيء، الغنيّ بذاته عن كل شيء، العالم بكل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء؛ فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه ينقص بحق ربوبيّته وإلهيّته وتوحيده وظن به ظنّ السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كلّ قبيح.

يوضح هذا: أنّ العابد معظّم لمعبوده ومُتألّه له، خاضع ذليل له، والربّ تعالى وحده هو الذي يستحقّ كمال التعظيم والإجلال والتألّه والخضوع والذل، وهذا خالص لحقه، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيّما إذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ أي: إذا كان أحدكم يأنف ويستكبر أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الألوهية؟ التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمي حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَعِظُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْنَاهُ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره، من أشرك معه في عبادته من ليس له

شيء من ذلك ألبتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل». اهـ

[قاعدة متفرعة منها]

«الْقَدَرِي وَالْجَبَرِي وَالْمَوْول وَالْمَحْرَف، وَالنَافِي لَاسْتَوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَنْ نَفَى إِرسَالَ الرِّسْلِ، وَمَنْ جَعَلَ لِلَّهِ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَجَهِلُوا قُدْسِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ وَعَصُوا اللَّهَ فِي أَعْظَمِ صِفَاتِهِ وَنَسَبُوهُ إِلَى مَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ».

قال ابن القيم في «الداء والدواء» (ص ١٤٥-١٤٨):

وكذلك ما قدره حق قدره مَنْ قال: إِنَّهُ لَمْ يَرْسِلْ إِلَى خَلْقِهِ رَسُولًا، وَلَا أَنْزَلَ كِتَابًا، بل نسبته إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه، من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سُدًى وخلقهم باطلاً وعبثاً، [﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ [القيامة: ٣٨]، ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنَى وصفاته العُلَى، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوّه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، أو نفى عموم قدرته وتعلّقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيّته وخلقها وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علوّاً كبيراً [﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾] [الشورى: ١١] فأثبت لنفسه السمع والبصر وغيرها من الصفات بلا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا نديماثله ويشابهه ﷻ.

● وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إِنَّهُ يَعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ،

ولا له عليه قُدْرَةٌ ولا تأثير له فيه البتَّة، بل هو نفس فعل الربِّ ﷻ، فيعاقب عبده على فعله هو سبحانه الذي جبر العبد عليه وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستقر في الفِطْرِ والعقول أنَّ السَّيِّد لو أكره خادمه على فعلٍ أو ألجأه كرهاً إليه ثُمَّ يعاقبه عليه لكان قبيحاً، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعلٍ لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته، بل ولا هو فعله ألبتَّة ثُمَّ يعاقبه عليه عقوبة الأبد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً [وقد قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١)] فقول هؤلاء شرٌّ من المجوس والطائفتان، ما قدروا الله حق قدره.

● وكذلك ما قدَّر الله حق قدره من لم يصنعه عن نتي ولا حشٍّ، ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله في كل مكان، وصانه عن عرشه أن يكون مستويّاً عليه [وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وتخرج الملائكة والروح إليه، وتنزل من عنده ﴿يُذِيرُ الْأَمْرَ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثُمَّ جعله في كل مكان يأنف الإنسان، بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

● وما قدَّره حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصافه التي نفوها وزعموا أنهم بنفياها قد قدروه حق قدره؟!

● وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً، أو جعله سبحانه

(١) رواه ابن ماجه في «سننه» (٢٠٤٣)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨١٠)، وصححه ووافقه الذهبي.

يحل في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود؟!، وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِهِ ﷺ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمَلِكَ وَالْخَلِيفَةَ وَالْعِزَّ، وَوَضَعَ أَوْلِيَاءَ رَسُولِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَهَانَهُمْ وَأَذْلَهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَمَا تُقْفُوا وَوُجِدُوا، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْقَدْحِ فِي جَنَابِ الرَّبِّ، تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الرَّاغُزَةِ عَلَوًا كَبِيرًا، وَهَذَا الْقَوْلُ مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنَّهُ أَرْسَلَ مَلَكًا ظَالِمًا فَادَّعَى النُّبُوَّةَ لِنَفْسِهِ، وَكَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَأَمَرَ بِكَذَا وَنَهَى عَنْ كَذَا، وَنَسَخَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ، وَيَسْتَبِيحُ دِمَاءَ أَتْبَاعِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَحَرَمَهُمْ، وَيَقُولُ اللَّهُ أَبَاحَ لِي ذَلِكَ، وَالرَّبُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يُوَيِّدُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيُعَلِّمُهُ وَيُعِزُّهُ وَيَجِيبُ دَعْوَاتِهِ، وَيُمْكِنُهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، وَيَقِيمُ الْأَدْلَةَ عَلَى صِدْقِهِ، وَلَا يَعَادِيهِ أَحَدٌ إِلَّا ظَفَرَ بِهِ، فَيَصِدِّقُهُ بِقَوْلِهِ وَفَعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ، وَيُحَدِّثُ أَدْلَةَ تَصْدِيقِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ أَعْظَمَ الْقَدْحِ وَالطَّعْنَ فِي الرَّبِّ ﷻ وَعِلْمَهُ وَحُكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَرَبُوبِيَّتَهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ الْجَاهِلِينَ عَلَوًا كَبِيرًا.

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَعْذَّبَ أَوْلِيَاءَهُ وَمَنْ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيَدْخُلَهُمْ دَارُ الْجَحِيمِ، وَيَنْعَمَ أَعْدَاءُهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيَدْخُلَهُمْ دَارُ النِّعَمِ، وَأَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ بِهِ أَسْوَأَ الْأَحْكَامِ [فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ٧٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟] [ص: ٢٧، ٢٨]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّغَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِمَّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَتَجَزَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢﴾ [الجنات: ٢١، ٢٢]، وَقَالَ: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره وعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه أثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة مولاه، فلله الفضلة في قلبه وعمله، وسواه

المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله واطلاعه عليه وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويعظم نظر المخلوق إليه، واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، يستحيي من الناس ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره [قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنْ أَلْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]]، وإن قام في خدمة إلهه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد فرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه -إن ساعده القدر- قام قياماً لا يرضاه من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوق مثله، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه؟! اهـ.



القاعدة السابعة عشرة

«لسوء الخاتمة أسباب ولها طرق وأبواب، أعظمها: الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والإقدام على معاصي الله ﷻ والجرأة عليها، وقد يغلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فسلك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، أمّا من استقام ظاهره وصلاح باطنه سرّته خاتمته واستبشر بما يحبه الله ويرضاه».

ذكر ابن القيم في: «الداء والدواء» ص (١٧٥) كلاماً جليلاً للحافظ أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي من كتابه: «كتاب العاقبة» فذكرت نص القاعدة من هذا الكتاب، ثم قال:

«فربّما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبيّن المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد، وذلك لانشغال قلبه بما كان عليه في حياته، فيقول له ابنه: قل لا إله إلا الله، فلا يستطيعها [قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ٥٥] وَأَنبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٦] أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦] أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧] أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨] بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ ﴿[الزمر: ٥٤-٥٩]، وقال:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِي ءَادَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ٦٠] وَأَن

أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٩﴾ يس: ٦٠-٦٢، وقال سبحانه: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُم سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿١٣٠﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢١، ٢٢].

• ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبته من الأرض فقال: «الذنوب أهون من هذا؛ وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة».

وهذا من أعظم الفقه، أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحوّل بينه وبين الخاتمة الحسنَى.

• [ومن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً عن حسن الخاتمة]

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه: إنه لما احتضر جعل يُغَمِّي عليه ثم يفيق، ويقرأ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنَى.

واعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله تعالى منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه، ما سُمع بهذا ولا عُلِمَ به ولله الحمد، وإنما يكون ذلك لمن له فساد في الأصل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطَّوَيَّةِ، ويصطلم ^(١) قبل الإنابة؛

(١) الاصطلام: القطع والاستئصال والإبادة «المعجم الوجيز» (ص: ٣٦٩).

فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويخطفه عند تلك الدهشة [وقد قال ﷺ: «موت الفجأة أخذة أسف»^(١)] اهـ.

● قلت: قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقُوَىٰ وَأَتَّقُوا يَكُونِ الْآخِرُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال سبحانه: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وقال ﷺ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال عز من قال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٥٠٤٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣١٢٩)، وأبو داود (٣١١٠)، والترمذي في «سننه» (٩٨٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/٣٧٨)، وقال المنذري في «مختصر السنن» (٢٢/٦) على هامش «عون المعبود»: «رجال إسناده ثقات».

القاعدة الثامنة عشرة

«أكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة:
اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات، مقدمات بين
يدي التحريم»

قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ١٥٨ وما بعدها) مختصراً:
«فأما اللحظات: فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج،
فمن أطلق بصره أورد نفسه مؤرد الهلكات، قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ،
فَإِنَّمَا الْأُولَى لَكَ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخَرَى»^(١)، وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى
الطَّرِيقَاتِ» قالوا: يا رسول الله مجالسنا ما لنا بدُّ منها، قال: «إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ،
فَاعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قالوا: وما حَقُّه؟ قال: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ
السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(٢).

والنظر أصل عامّة الحوادث التي تصيب الإنسان، فَإِنَّ النَّظْرَةَ تَوَلَّدَ خَطَرَةٌ، ثُمَّ
تَوَلَّدَ الْخَطَرَةُ فِكْرَةٌ، ثُمَّ تَوَلَّدَ الْفِكْرَةُ شَهْوَةٌ، ثُمَّ تَوَلَّدَ الشَّهْوَةُ إِرَادَةٌ، ثُمَّ تَقَوَّى فَتَصِيرُ
عَزِيمَةً جَازِمَةً، فَيَقَعُ الْفِعْلُ وَلَا بَدَّ، مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيلَ: «الصَّبْرُ عَلَى
غَضِّ الْبَصَرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَلَمٍ مَا بَعْدَهُ» [قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٤)] وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿[النور: ٣٠، ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا
الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقربان الزنا يكون ابتداءً باللحظات

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم
في «المستدرک» (٢٧٨٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).

وما بعدها فنهى عنها كلها . [

ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفريات والحرقات؛ فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب، ألا ترى ما لا صبر لك على بعضه، ولا قدرة لك على بعضه؟!، ومن العجب: أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر، ولي في ذلك قصيدة:

يا راميًا بسهام اللّحظ مُجْتَهِدًا أنت القَتِيلُ بما ترمي فلا تُصِبْ
وَبَاعِثِ الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ أَحْبَسَ رَسُولَكَ لَا يَأْتِيكَ بِالْعَطَبِ

وأعجب من ذلك: أن النظرة تجرح القلب جرحاً، فيتبعها جرحاً على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها ولي أيضاً في هذا المعنى:

مَا زِلْتَ تَتَّبِعُ نَظْرَةً فِي نَظْرَةٍ فِي إِثْرِ كُلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحٍ
وَتَظُنُّ ذَاكَ دَوَاءً جُرْحِكَ وَهُوَ فِي الْحَقِّ تَجْرِيحٌ عَلَى تَجْرِيحٍ
فَذَبَحْتَ طَرْفَكَ بِاللَّحَازِ وَبِالْبُكَاءِ فَالْقَلْبُ مِنْكَ ذَبِيحٌ أَيُّ ذَبِيحٍ

[وقد قال ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف

تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١)، فقوله ﷺ: «فاتقوا الدنيا» فهو عموم لكل ما في الدنيا من الشهوات والملذات الحرام، ثم قال: «واتقوا النساء» وهن من الدنيا، فكان ذلك تخصيص بعد التعميم؛ لينتبه الرجال لعظم هذه الفتنة]

● **وأما الخطرات:** فشأنها أعظم؛ فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد

الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهو هواه ونفسه أغلب، ومن استهان بالخطرات قاده قهراً إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة ﴿كَرَاهٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٤٢).

سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[النور: ٣٩]، وَأَخْسَ النَّاسَ هَمَّةً وَأَوْضَعَهُمْ نَفْسًا، مِنْ رِضَى مِنَ الْحَقَائِقِ بِالْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ، وَاسْتَجْلَبَهَا لِنَفْسِهِ وَتَحَلَّى بِهَا، وَهِيَ لِعَمْرِ اللَّهِ رُؤُوسَ أَمْوَالِ الْمَفْلَسِينَ وَمَتَاجِرِ الْمَبْطُلِينَ، وَهِيَ قُوَّةُ النَّفْسِ الْفَارِغَةِ الَّتِي قَدْ قَنَعَتْ مِنَ الْوَصْلِ بِزُورَةِ الْخِيَالِ، وَمِنْ الْحَقَائِقِ بِكَوَاذِبِ الْأَمَالِ، وَهِيَ أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَتَتَوَلَّدُ مِنَ الْعِجْزِ وَالْكَسَلِ، وَتَوَلَّدُ التَّفْرِيطُ وَالْحَسْرَةُ وَالنَّدَمُ، وَالْمَتَمَنِّي لَمَّا فَاتَتْهُ مَبَاشِرَةُ الْحَقِيقَةِ بِجِسْمِهِ حَوْلَ صَوْرَتِهَا فِي قَلْبِهِ، وَعَانَقَهَا وَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَقَنَعَ بِوَصَالِ صُورَةٍ وَهَمِّيَّةٍ خَيَالِيَةٍ صَوَّرَهَا فِكْرُهُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ لَا يَجْدِي شَيْئًا، وَإِنَّمَا مِثْلُهُ مِثْلُ الْجَائِعِ وَالظَّمْآنِ، يَصَوِّرُ فِي وَهْمِهِ صُورَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَهُوَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَالسَّكُونِ إِلَى ذَلِكَ وَاسْتِجْلَابِهِ يَدُلُّ عَلَى خَسَاسَةِ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا، وَإِنَّمَا شَرَفُ النَّفْسِ وَزَكَوَاتُهَا وَطَهَارَتُهَا وَعُلُوُّهَا؛ بِأَنْ يَنْفِي عَنْهَا كُلَّ خَطَرَةٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَلَا يَرْضَى أَنْ يُخْطَرَهَا بِبَالِهِ، وَيَأْنِفُ لِنَفْسِهِ مِنْهَا.

● [الخطرات أقسام تدور على أربعة أصول:]

ثُمَّ الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول:

١- خطرات تستجلب بها منافع دنياء.

٢- وخطرات يستدفع بها مضار دنياء.

٣- وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته.

٤- وخطرات يستدفع بها مضار آخرته.

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الأقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها، فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره، وإذا تزاومت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قَدَّمَ الأهم فالأهم الذي يخشى فوته، أَوَّخَرُ الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته.

● وبقي قسمان آخران: أحدهما: مهم لا يفوت، والثاني: غير مهم، ولكنه يفوت، ففي كلٍّ منهما ما يدعو إلى تقديمه، فهنا يقع التردد والحيرة، فإن قَدَّمَ المهم خشي فوات ما دونه، وإن قَدَّمَ ما دونه فاتته الاشتغال به عن المهم، وكذلك يعرض

له أمرات لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر .
فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن هاهنا ارتفع من ارتفع
وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ، ولكنه مستقل
ومستكثر .

• قاعدة فقهية مهمة في الباب:

والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي عليها مدار الشرع والقدرة ،
وإليها يرجع الخلق والأمر وهي : «إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما ، وإن فاتت
المصلحة التي دونها ، والدخول في أدنى المفسدين لدفع ما هو أكبر منها فيفوت
مصلحة ، ليحصل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها» ؛
فخطرات العاقل وفكره لا يتجاوز ذلك ، وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا
والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلّها وأنفعها ، ما كان لله والدار
الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع :

• خمس خطرات هي لله :

أحدها : الفكرة في آياته المنزلة وتعلّقها ، وفهم مراده منها ، وكذلك أنزلها الله
تعالى لا لمجرد تلاوتها ، بل التلاوة وسيلة ، قال بعض السلف : «أنزل الله القرآن
ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً» .

الثاني : الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسمائه
وصفاته ، وحكمته ، وإحسانه ، وبرّه ، وجوده ، وقد خصّ سبحانه عباده على التفكر
في آياته وتدبرها وتعلّقها ، وذم الغافل عن ذلك .

الثالث : الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة
رحمته ومغفرته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبّته وخوفه ورجاءه ،
ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة في عيوب النفس وآفاتهما ، وفي عيوب العمل ، وهذه الفكرة

عظيمة النفع، وهي باب لكل خير، وتأثيرها في كسر النفس الأمّارة بالسوء، ومتى كسرت عاشت النفس مطمئنة، وانتعشت وصار الحكم لها، فحيى القلب، ودارت كلمته في مملكته، وبث أمراءه وجنده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهمّ كله عليه، فالعارف لزم وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنّما تنشأ من الوقت، وإن ضيّع لم يستدركه أبداً، قال الشافعي رحمته الله: «صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: أحدهما قولهم: الوقت سيف فإن قطعتة وإلا قطعك، وذكر الكلمة الأخرى: ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل».

فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمرّ أسرع من مرّ السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً في حياته، وإن عاش فيه عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأمانى الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته، وإذا كان العبد -وهو في الصلاة- ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر، فإمّا وساوس شيطانية، وإمّا أمانى باطلة وخدع كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكران والمحشوشين والموسوسين، ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق:

إن كان منزلتي في الحشر عندكم ما قد لقيتُ فقد ضيّعت أيامي

أُمنيّة ظفرت نفسي بها زَمَنًا واليوم أحسبُها أضغاث أحلام

● واعلم أن ورود خاطر لا يضر، وإنّما يضر استدعاؤه ومحادثته، فالخاطر

كالمارّ على الطريق، فإن لم تستدعه وتركته مرّ وانصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخدعِهِ وغروره، وهو أخفّ شيء على النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية مطمئنة، وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفساً أمّارة، ونفساً مطمئنة، وهما متعاديتان، فكل ما خفّ

على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى؛ فليس على النفس الأمانة أشق من العمل لله، وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعي الهوى، وليس عليها شيء أضر منه، والمَلَكُ من هذه عن يمنة القلب، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب، والحرب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفي أجلها من الدنيا، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأمانة، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة، والحرب دول وسجال، والنصر مع الصبر، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله حكمًا لا يبدل أبدًا أن العاقبة للتقوى والعاقبة للمتقين، فالقلب لوح فارغ، والخواطر نقوش تنفش فيه، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحة ما بين كذب وغرور وخدع، وأمانى باطلة، وسراب لا حقيقة له؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه، كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الرديئة، لم تستقر فيه الخواطر النافعة، فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا.

● وأما اللفظات: فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوت بها كلمة هي أربح منها: فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلع على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى.

● القلوب قدور تغلي بما فيها:]

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور يغلي بما فيها، وألستها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف ممًا في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اعتراف لسانه».

أي: كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة

ذلك، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك، وسئل عليه السلام عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج» قال الترمذي: حديث حسن صحيح^(١).

ومن العجب: أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورّع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم»، وعند مسلم بلفظ: «إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»^(٢).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(٣) والحديث صحيح.

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله: «إذا أصبح العبد فإنَّ الأعضاء كُلُّهَا تَكْفُرُ اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنَّما نحن بك، فإذا استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»^(٤).

(١) روى الترمذي في «سننه» (٢٠٠٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٩)، وابن ماجه

(٢١٧٣)، وابن حبان في «سننه» (١٩٢٣). (٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٠)، وقال: حسن صحيح بهذا اللفظ، وهو عند مسلم (٣٨).

(٤) رواه الترمذي في «سننه» (٢٤٠٧)، وأحمد في «مسنده» (١١٨٤٧)، وابن المبارك في «الزهد»

(٢٠١٢).

● وأما الخطوات: فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب، فالقعود عنها خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطوا إليه قربة ينويها لله فتقع خطاه قربة، ولما كانت العشرة عشرين: عشرة الرجل، وعشرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] اهـ.



القاعدة التاسعة عشرة

«اللَّهُ نور السموات والأرض ونوره القرآن، يحيي به الموتى، ويهتدي به الضَّالُّ، ويُسْتَشْفَى به المرضى، مرضى القلوب والأبدان، نور على نور، يهدي الله لنوره ما يشاء»

قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢١٦):

«هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً؛ أي: في الضلالة، هالِكاً حائراً، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لاتباع رسوله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾؛ أي: يهتدي به كيف يسلك؟ وكيف يتصرف؟، والنور هو القرآن كما رواه العوفي، وابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ أي: لا يهتدي إلى منقذ ولا مخلص مما هو فيه.

وفي «مسند أحمد» عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»^(١)، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٢]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦٦٤٤)، والآجري في الشريعة (٣٣٧)، والترمذي في «سننه» (٢٦٤٢)، وقال: حديث حسن، والحاكم في «المستدرک» (٨٣)، وصححه على شرط الشيخين وقال: لا أعلم له علة، ووافقه الذهبي وقال كما قال الحاكم، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٧٠، ٦١٦٩).

أَظْلُ وَلَا أَحْرُورُ ﴿٣٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٤٠﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٤١﴾ [فاطر: ١٩-٢٣]، والآيات كثيرة، والصحيح أَنَّ الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكل كافر اهـ.

قلت: وذلك لعموم القاعدة الأصولية: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» التي أجمعوا عليها.

شرح المباركفوري في: «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي» (٥٦/٧) حديث أحمد هذا فقال: «قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ خَلْقَهُ»؛ أي: الثقلين من الجن والإنس؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ مَا خَلَقُوا إِلَّا مِنْ نُورٍ «في ظلمة»؛ أي: الكائنين في ظلمة النفس الأمارة بالسوء، المجبولة بالشهوات المردية والأهواء المضلة» اهـ.

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٢٤٩):

«يقول تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيِّتًا﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين النَّاسِ في النُّورِ مستبصرًا في أموره، مهتديًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر، مبغضًا له، مجتهدًا في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغبي والمعاصي؟، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهمُّ والغمُّ والحزن والشقاء، فنَّبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي هَذَا وَلَا هَذَا، كَمَا لَا يَسْتَوِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالضِّيَاءُ وَالظُّلْمَةُ وَالْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ يُوْثَّرُ مَنْ لَهُ أَدْنَى مَسْكَةٍ مِنْ عَقْلِ أَنْ يَكُونَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ، وَأَنْ يَبْقَى فِي الظُّلُمَاتِ مُحْتِيرًا؟! اهـ.

• بيان معنى النور من سورة النور:

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمَثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿[النور: ٣٥].

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (١٨/١٤٣ - ١٥٣) مختصراً:

«يعني تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هادي من في السموات والأرض، فَهُمْ بنوره إلى الحق يهتدون، وبهده من حيرة الضلالة يعتصمون.

(٢٦٠٣٩) حدثني عن ابن عباس يقول الله سبحانه هادي أهل السموات والأرض».

(٢٦٠٤٠) حدثني . . . عن أنس بن مالك قال: إِنَّ إلهي يقول: نوري هادي».

وقال آخرون: بل عنى بذلك النور الضياء، قالوا: ضياء السموات والأرض. (٢٦٠٤٢) حدثني . . . عن أبي بن كعب قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثُمَّ ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به».

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك؛ لَأَنَّهُ عُقِيبُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤] فكان ذلك بأن يكون خبراً عن موقع يقع تنزيله من خلقه، ومن مدح ما ابتدأ بذكر مدحه أولى وأشبهه، ما لم يأت ما يدل على انقضاء الخبر عنه عن غيره، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات مبينات الحق من الباطل، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤] فهديناكم بها، وبينا لكم معالم دينكم بها؛ لأنني هادي أهل السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾:

(٢٦٠٤٥) حدثنا عن سعيد بن جبير قال: مثل نور المؤمن.

(٢٦٠٤٩) حدثني عن ابن عباس: مثل هداة في قلب المؤمن.

(٢٦٠٥٢) أخبرنا قال زيد بن أسلم: نوره الذي ذكر القرآن ومثله

الذي ضرب له .

(٢٦٠٥٣) (حدثني ، عن ابن عباس قال : وذلك أَنَّ اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال : ﴿اللَّهُ نُورُ الْأَسْمَانِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ﴾ قال : وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمي طاعته نورًا ، ثُمَّ سَمَّاها أَنْوَارًا شَتَّى ، قوله : ﴿كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ .

(٢٦٠٦٢) حدثنا . . . ، قال ابن جريج : قال مجاهد وابن عباس جميعًا : المصباح وما فيه مثل فؤاد المؤمن وجوفه ، المصباح مثل الفؤاد والكوة مثل الجوف .

(٢٦٠٨٠) حدثني ، عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ : يضيء بعضه بعضًا يعني القرآن .

وقوله تعالى : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يقول تعالى ذكره : يوفق الله لاتباع نوره ، وهو هذا القرآن من يشاء من عباده ، وقوله : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : ويمثل الله الأمثال والأشباه للناس ، كما مثل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة ، وسائر ما في هذه الآية من الأمثال اهـ .
قال السعدي في «تفسيره» : (ص : ٥٤٠) :

«قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ الْأَسْمَانِ وَالْأَرْضِ﴾ الحسِّي والمعنوي ، وذلك أَنَّهُ تعالى بذاته نور ، وحجابه -الذي لولا لطفه لأحرقَتْ سُبُحَاتِ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه- نور ، وبه استنار العرش ، والكرسي ، والشمس ، والقمر ، والنور ، وبه استنارت الجنة ، وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله ، فكتابه نور ، وشرعه نور ، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور ، فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات ؛ ولهذا كل محل يفقد نوره فثُمَّ الظلمة والحصر ، ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهتدي إليه ، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كَمِشْكَوْفٍ﴾ : كوة [الفتحة النافذة] ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ لأنَّ الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرَّق ذلك ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفاتها وبهائها ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ؛ أي : مُضيء

إضاءة الدُّرِّ، ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجاة الدريّة ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ ؛ أي : يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ﴾ فقط فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ فقط فلا تصيبها الشمس أوّل النهار، وإذا انتفى عنها الأمران كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام تصيبها الشمس أوّل النهار وآخره، فتحسن وتطيب ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال : ﴿يُضَيُّ وَكَوَلَهُ تَمَسَّسُهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النّار أضاء إضاءة بليغة ﴿ثُورٌ عَلَى ثُورٍ﴾ ؛ أي : نور النّار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه : أن فطرته التي فُطر عليها بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان اشتعل ذلك النور في قلبه بمنزلة إشعال النّار بفتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة ؛ لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجاة الدريّة، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره، ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك قال : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ مَن يعلم الله زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمي ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، ويفهموا، لطفًا منه لهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإنّ الأمثال تُقَرِّبُ المعاني المعقولة من المحسوسة فيعلمها العباد علمًا واضحًا، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَعَلِمَهُ محيط بجميع الأشياء فلتعلموا أن ضربه الأمثال ضربٌ مَن يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنّها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها، فإنّه يعلم وأنتم لا تعلمون» اهـ.

• تفسير ابن القيم لآية سورة النور.

• قال ابن القيم في : «الداء والدواء» (ص : ١٨٧) بعد ذكر آية سورة النور :

﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ :

«أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره، واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات عليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع وضلالة، وأتباع الهوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة؛ فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس^(١) الظلمات وأن هذا النور يورث فراسة^(٢) صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، وكان شجاع الكرمانى يقول: «من عمّر ظاهره باتباع السنّة، وباطنه، بدوام المراقبة، وغضّ بصره عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، واغتذى بالحلال، لم تخطئ له فراسة»، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من حسن عمله، ومن ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه، فإذا غضّ بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته؛ عوضاً عن حبس بصره لله عن المحارم، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة القلب» اهـ.

• بيان مهم:

قلت: هذا الذي ذكره ابن القيم إنما هو من الجواب الذي سأله السائل في أول صفحة من هذا الكتاب فأصل ابن القيم عمومات كلية لكل معصية لله وللرسول، ومن ثمّ قعدت واستنبطت هذه القواعد على ضوئها، وهذا منهج السلف في الصنعة التصنيفية، وهذا في كتاب ابن القيم في هذه الطبعة ردّ على السؤال خصوصاً في

(١) جمع حندس: أي: شديد الظلمة، عن أبي هريرة قال: «كنا عند النبي ﷺ في ليلة ظلماء حندس»؛ يعني: شديدة الظلمة «النهاية» (٤٣٢/١) لابن الأثير، ويجوس: يدور ويتردد فيها.

(٢) الفراسة: ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحَدَس، وهو نوع يُتعلّم بالتجارب والدلائل على القول الثاني، قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» «النهاية» (٣/٣٨٣) رواه الترمذي في «سننه» (٣١٢٧)، وقال: غريب، وحسنه ابن القيم في منزلة الفراسة من كتاب «مدارج السالكين» (٤٨٢/٣).

سؤاله الصفحة (١٨٦) وفي طبعات أخرى أكثر من مائتي صفحة، وكان أول ما بدأ ابن القيم جوابه ذكر حديث البخاري (٥٦٧٨) في «صحيحه» قال ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»، ثم أعاده هنا بزيادة: «علمه من علمه وجهله من جهله» ثم خصص جوابه على الفاحشة الخبيثة وهي فعل قوم لوط فقال:

• «والكلام في دواء هذا الداء من طريقين [وهو داء الفاحشة]

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها، والثاني: قلعها بعد نزوله، وكلاهما يسير على من يسره الله، ومتعذر على من لم يُعنه الله، فإن أزمّة الأمور بيديه.

فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران:

أحدهما: غض البصر كما تقدم ذكره من قبل؛ فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته، وفي غض البصر عدة منافع:

• [منافع غض البصر:]

أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده؛ فليس للعبد في دنياه، وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربّه -تبارك وتعالى-، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم -الذي لعلّ فيه هلاكه- إلى قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعه عليه، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده عن الله، وليس على القلب شيء أضر عليه من إطلاق البصر؛ فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربّه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يكسب القلب نوراً، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر، قال ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال إثر ذلك: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

[فذكر ما أورده أنفًا من الفراسة وهي السادسة].

السابعة: أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة، فجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، وفي الأثر: «الذي يخالف هواه يَفْرِقُ الشَّيْطَانَ مِنْ ظِلِّهِ»، وضد هذا تجد في المتبع لهواه - من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخسستها وحقارتها - ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه، كما قال الحسن: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَقْتُ بِهِمُ الْبَغَالَ، وَهَمَلَجْتُ بِهِمُ الْبَرَادِينَ، إِنْ ذَلَّ الْمَعْصِيَةُ فِي رِقَابِهِمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَذَلَ مِنْ عَصَاهُ».

والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ أي: من كان يريد العزّة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح، ومن أطاع الله فقد والا به فيما أطاعه فيه، وله من العزّ بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

الثامنة: أنه يسدُّ على الشيطان مدخله إلى القلب، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء إلى المكان الخالي.

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحة والاشتغال بها، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أمره، ويقع في اتباع هواه، وفي الغفلة عن ذكر ربه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة.

العاشرة: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك جانب الصلاح، فإذا فسدت العين خرب القلب وفسد وصارت كالمزبلة التي هي محلّ النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به، والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

• الطريق الثاني المانع من حصول تعلق القلب:

اشتغال القلب بما يبعده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إمّا خوف مقلق أو حُب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبة ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب، لم يجد بُدًّا من عشق الصور وشرح هذا: أَنَّ النفس لا تترك محبوبًا إلاّ لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

[الابد للشفاء والعلاج من بصيرة صحيحة وعزم قوي وصبر]

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصة العقل، ولا يُعدّ عاقلًا من كان بضد ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالًا منه.

الثاني: قوّة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك، فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأتي له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إثارة أشياء لا تنفع مع جشعه وحرصه ووضاعة نفسه وخسّة نفسه، ولا ينتفع به غيره، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلاّ من أهل الصبر واليقين، فقال تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون منهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وهذا هو الذي ينتفع به النَّاسُ، وضده لا ينتفع بعلمه، ولا ينتفع به غيره، ومن النَّاسِ من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره، فالأول يمشي في نوره ويمشي النَّاسُ في نوره، والثاني قد طفق، فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته، والثالث يمشي في نور وحده» اهـ.

هذا ردّ ابن القيم لسائله، فكان هذا الردّ كتابًا جليلاً ينتفع به النَّاسُ إلى يوم القيامة، ثمّ فرّع بعد ذلك مسائل إكمالاً لهذا الجواب حتى نهاية الكتاب، وهو

الجزء الثالث من هذا الكتاب وخصصه في بيان فساد الفواحش وآثارها ، وفساد
العشق المُحرّم وبيان دوائه ، ثُمَّ دخل في أنواع الحب والمحبة ، وأحمدُ أنواع
الحب : حبّ الله ورسوله ﷺ ، وكان شرطي في هذا الكتاب التقعيد الكلّي بعيدًا
عن التفريع ، إذ القاعدة كانت ليفرّع عليها .



القاعدة العشرون

«الْعَمَى عَمَى الْعَيْنِ وَالْبَصَرِ، وَالْعَمَةُ عَمَى الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةُ
الْمُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ ﴿فَاتَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]»

• بيان معنى العمى والعمه:

قال الفيروز آبادي في: «القاموس المحيط» (٢٨٣ / ٤):

«الْعَمَةُ: التردد في الضلال والتحير في منازعة، أو في طريق، أو أن لا يعرف
الحُجَّة» اهـ.

وقال ابن فارس في: «مقاييس اللغة» (١٣٣ / ٤ - ١٣٤):

«عَمَى: العين والميم والحرف المعتل أصل واحد يدلُّ على سِتْرٍ وتغطية، من
ذلك ذهاب البصر من العينين كليتها، ورجل عَمٍ إذا كان أَعْمَى القلب، وقوم
عمون، ويقولون في هذا المعنى: ما أعماه، ولا يقولون في عَمَى البصر ما أعماه؛
لأنَّ ذلك نعت ظاهر يدركه البصر، ويقولون فيما خفي من النُّعوت ما أفعله، قال
الخليل: لأنَّه قبيح أن تقول للمشار إليه: ما أعماه، والمخاطب قد شاركك في
معرفة عماه، والتعمية: أن تعمِّي على أنسان شيئاً فتلبِّسه عليه لبساً» اهـ.

وقال ابن منظور في «لسان العرب» (٢٨٩ - ٢٩٠):

«يُقال امرأة عَمِيَّة عن الصواب وعَمِيَّة القلب، قال الفراء: عَدَدَ اللَّهُ نعم الدنيا
على المخاطبين ثُمَّ قال: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]، يعني نعم الدنيا
التي اقتصصناها عليكم ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] يعني فهو في
نعم الآخرة أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا، ويُقال: فلان أَعْمَى من فلان في القلب، ولا يُقال
هو أَعْمَى منه في العين، ويُقال رجل عَمِيَ القلب أي جاهل، والعمى: ذهاب نظر

القلب، وقيل: أعمى عن حُجَّتِهِ، وتأويله: أنه لا حجة له يهتدي إليها؛ لأنه ليس للناس على الله حجة بعد الرسل وقد بشر وأنذر وَوَعَدَ وَأَوَعَدَ، وروى عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥] قال: أعمى عن الحجة وقد كنت بصيرًا بها.

وقال نَفْطَوَيْهِ: يُقَالُ عَمِيَ فلان عن رَشْدِهِ وَعَمِيَ عليه طريقه إذا لم يهتد لطريقه، وكلما ذكر الله ﷻ الْعَمَى في كتابه فَذَمَّهُ؛ بريد عَمَى القلب قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، هو على المثل، جعلهم في ترك العمل بما يُبْصِرُونَ، وَوَعَى ما يسمعون بمنزلة الموتى» اهـ.

وقال الراغب الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٣٤٨):
«الْعَمَى يُقَالُ فِي افْتِقَادِ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ وَالْعَمَهُ التَّرَدُّدُ فِي الْأَمْرِ مِنَ التَّحِيرِ فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]، وعلى الثاني ما ورد من ذَمِّ الْعَمَى نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١]، بل لم يَعُدْ افْتِقَادُ الْبَصَرِ فِي جَنْبِ افْتِقَادِ الْبَصِيرَةِ عَمَى وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]» اهـ.

قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٥٩):
«قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. قوله: ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾؛ أي: أبصار العيون ثابتة لهم ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؛ أي: تعمى عن درك الحق والاعتبار، قال قتادة: البصر الناظر جعل بُلْغَةً وَمَنْفَعَةً، والبصر النافع في القلب.

قال مجاهد: لكل عين أربع أعين -يعني: لكل إنسان أربع أعين-: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم

يضرّ عماه شيئاً، وإن أبصرت عيناً رأسه وعميت عيناً قلبه، فلم ينفعه نظره شيئاً.
قال ابن عباس ومقاتل: لما نزل ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أم مكتوم رضي الله عنه: يا رسول الله، فأنا أعمى في الدنيا أفأكون أعمى في الآخرة؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار اهـ.

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [١٢٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى [١٢٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [١٢٦] وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: ١٢٣-١٢٧].

قلت: وقاعدة العموم عندنا: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»
فيدخل في الآيات الكافر والمسلم.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال مجاهد: يترددون متحيرين في الكفر، قال أهل اللغة: وذهبت إبله العمهي، إذا لم يدر أين ذهبت.

وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَّهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

● سَكْرُ الْهَوَى وَصَرَعُ الْعَاشِقِينَ:

فإذا كان ذلك كذلك فارجع إلى إمامنا ومعلمنا ابن القيم في بداية رده على سؤال السائل بعد أن ذكر فوائد غرض البصر، والذي أنهيت به القاعدة السابقة التاسعة عشرة، فقال رحمه الله:

«والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فإذا غرض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور

بصيرته عَوْضًا عَنْ حَبْسِ بصره لله ، ويفتح عليه باب العلم ، والإيمان والمعرفة ،
والفراسة الصادقة المصيبة التي إِنَّمَا تُنَالُ ببصيرة القلب ، وضدّ هذا : ما وصف الله
به اللوطية من العَمَةِ الذي هو ضد البصيرة ، فقال تعالى : ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَا لَفِيَ سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] ؛ فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل ، والعَمَةُ الذي هو ضد
البصيرة ، فالتعلّق بالصور يوجب فساد العقل وعمه البصيرة ، وسُكْر القلب كما قال
القائل :

سُكْرَانِ سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ وَمَتَى إِفَاقَةٌ مِنْ بِهِ سُكْرَانِ؟

وقال الآخر :

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمُ الْعَشَقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
العشق لا يستفيقُ الدهرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُضْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ اهـ .



«ثلاثة قواعد من عندي خارج الداء والدواء تدور في فلكه»

القاعدة الحادية والعشرون

«حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»

روى أبو داود في «سننه» (٥١٢١) في كتاب الأدب، باب في الهوى، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ» والحديث سكت عنه أبو داود، وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٦٧٤) وحسنه كذلك المناوي في «فيض القدير» (٤٧٦/٣) وقال: «ويكفيها سكوت أبي داود عنه، فزعم وضعه بهت، ولا نسلم حذفه، بل ولا وضعه، بل هو حسن».

وأورد السخاوي الحديث في «المقاصد الحسنة» (٣٨٠) وكذلك العجلوني في: «كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» (١٠٩٥)، قال السخاوي: «رواه أبو داود والعسكري من حديث بقية بن الوليد عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبيه مرفوعاً -إلى رسول الله ﷺ- ولم ينفرد به بقية؛ فقد تابعه أبو حيوة شريح بن يزيد، ومحمد بن حرب كما عند العسكري، ويحيى البابلي كما عند القضاة في مسنده، وعاصم بن خالد ومحمد بن مصعب، كما عند أحمد في مسنده، وابن أبي مريم ضعيف، لاسيما وقد رواه أحمد عن أبي اليمان عن ابن أبي مريم فوقفه، والأول أكثر، وقد بالغ الصغاني فحكم عليه بالوضع، وكذا تعقبه العراقي وقال: ابن أبي مريم لم يتهمة أحد بكذب، إنما سرق له حلي فانكر عقله، وقد ضعفه غير واحد، ويكفيها سكوت أبي داود عليه فليس بموضوع، بل ولا شديد الضعف، فهو حسن. انتهى، [قلت: فذلك لأن النووي قال: ما سكت عنه أبو داود فهو حديث حسن كما في شرح مسلم].

[شرح الحديث:] وفي الباب ممّا لم يثبت عن معاوية، قال العسكري: أراد النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مِنَ الْحُبِّ مَا يُعْمِيكَ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ، وَيُضْمُّكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ، وَأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَلَبَ الْحُبُّ عَلَى قَلْبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ رَادِعٌ مِنْ عَقْلِ أَوْ دِينٍ أَصَمَّهُ حُبُّهُ عَنِ الْعَدْلِ وَأَعْمَاهُ عَنِ الرُّشْدِ.

وكذا قال بعض الشعراء:

وعين أخي الرضى عن ذاك تعمى.

وقال آخر:

فعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا.

وعن ثعلب قال:

تعمى العين عن النظر إلى مساويه وتَصَمُّ الأذن عن استماع العدل فيه.

وأنشأ يقول:

وكذبتُ طرفي فيك والطرف صادقٌ وأسمعتُ أذني فيك ما ليس تسمع.

وقيل: تعمى وتصم عن الآخرة، وفائدة الحديث: النهي عن حبّ ما لا ينبغي

فيك ما ليس تسمع

وقيل: تعمى وتصم عن الآخرة، وفائدة الحديث: النهي عن حبّ ما لا ينبغي

الإغراق في حبه» اهـ.

وقال المناوي في: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٤٧٦/٣):

«وفي رواية للحديث: «حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصَمُّ»؛ أي: يجعلك أعمى عن

عيوب المحبوب، أصمّ عن سماعها، حتى لا تُبْصِرُ قبيح فعله، ولا تسمع فيه نهى

ناصح، بل ترى القبيح منه حسناً، وتسمع منه الخنا قوله [يعني: الكلام الفاحش]

جَمِلاً.

وهذا معنى قول الكثير: يُعْمِي العين عند النظر إلى مساويه، ويصم الأذن عن

العدل فيه، أو يُعْمِي وَيُصَمُّ عن الآخرة، أو عن طريق الهدى، وفي هذا الحديث قد

عدّه العسكري من الأمثال، والحب لذة تُعْمِي رؤية المحبوب وتُصَمِّه عن سماع

العدل فيه ، والمحبة إذا استولت على القلب سلبته عن صفاته» اهـ .

وهذا الحديث رواه البخاري في : «التاريخ الكبير» (١٠٧/٢) رقم (١٨٥٢) موقوفاً على أبي الدرداء من قوله ، ومرفوعاً من كلام النَّبِيِّ ﷺ .

بَوَّبَ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ بَابَ الْأَدَبِ - كَمَا مَرَّ أَنْفَاءً ، فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْعَظِيمُ أَبَادِي فِي : «عَوْنُ الْمَعْبُودِ شَرْحُ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ» (٨/ ٤٠٤) :

«الهُوَى» قَالَ فِي «الْقَامُوسِ» : هَوَيْهِ كَرَضِيَّهِ ، هَوَى : أَحَبَّهُ [قَالَ تَعَالَى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾؟! [الفرقان : ٤٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْهُوَى إِلَهٌ يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ؛ أَي : أَطَاعَ هَوَاهُ ، وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ : لَا يَهُوَى شَيْئًا إِلَّا اتَّبَعَهُ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَمُقَارِبٌ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِيمَا رَدَّهُ عَلَى السَّرَاحِ الْقَزْوِينِيِّ :

تَرْجَمَ أَبُو دَاوُدَ [أَيَ بَوَّبَ] لِهَذَا الْحَدِيثِ بَابَ الْهُوَى ، [وَيَعْنِي الْبَابَ مِثْلَ الْعُنْوَانِ الَّذِي يُمَهِّدُ لِمَرَادِ الْحَدِيثِ] ؛ وَأَرَادَ بِذَلِكَ شَرْحَ مَعْنَاهُ ، وَأَنَّهُ خَبِرَ بِمَعْنَى التَّحْذِيرِ مِنْ اتِّبَاعِ الْهُوَى ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُرْسَلُ فِي اتِّبَاعِ الْهُوَى لَا يَبْصُرُ قَبْحَ مَا يَفْعَلُهُ ، وَلَا يَسْمَعُ نَهْيَ مَنْ يَنْصَحُهُ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ ذَلِكَ لِمَنْ يَحِبُّ أَحْوَالَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَتَفَقَّدْ عَلَيْهَا . انْتَهَى ، وَقَالَ الْحَافِظُ زَيْنُ الدِّينِ الْعِرَاقِيُّ فِي شَرْحِ التِّرْمِذِيِّ : قِيلَ : يُعْمِي عَنْ عِيُوبِ الْمَحْبُوبِ ، وَقِيلَ : عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى الْمَحْبُوبِ : انْتَهَى . وَذَلِكَ لِاسْتِیْلَاءِ سُلْطَانِ الْمَحَبَّةِ عَلَى الْفُؤَادِ .

قَالَ الْبِيهَقِيُّ : سَأَلَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْعَشْقِ فَقَالَ : الْحُبُّ لَذَّةٌ تُعْمِي عَنْ رُؤْيَا أَحَدٍ غَيْرِ مُحَبُّوبَةٍ ، فَإِذَا تَنَاهَى سُمِّيَ عَشْقًا وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ : «حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ» . اهـ .



القاعدة الثانية والعشرون «بُغْضُكَ لِلشَّيْءِ يُغْمِي وَيُصِمُّ»

وهذه القاعدة على عكس التي قبلها، لانتقال الحبّ إلى البغض، ففي منزلة الحب يستولي سلطان المحبة على قلبك فتمنعك محبتك أن تتقبل رأي من يطعن في محبوبك أو يُسيء إليه ولو بالحق والدليل والحجة، سواء بالقول أو بالفعل، وهذا الرأي في الغالب صحيح وحق واقع، فتتعمد التعمية فيه، وعدم السماع في كل من يتكلم عليه وفي ذلك إلغاء للعقل والحكمة وإتباع لهواك، وهذا ضلال بعيد عن الهدى، وغَيَّ عكس الرشاد، وهذا وجه من وجوه التعصب المذموم.

ثم نفس الأمر في منزلة البغض، وفي هذه المنزلة قد استولى البغض والكراهية والسخط على فؤادك وهواك، فيؤدي إلى العمى والصمم، فيعمي عيناه عمن يُبني ويمدح من يبغضه ولو بحق وبرهان، أو سماع أي شيء فيه صفة عدل وتوثيق، بل هذا أعظم سوء من المحبة، لأنَّ المحبة فيها شيء له دليل عند المحب ثم يبالغ فيه -كما قيل في الفرق بين الحب والعشق- أمّا منزلة البغض -نعم هو أيضًا استيلاء على القلب وهوى- ولكن هو لا يرضى لمبغضه أي خير وهذا ظلم بين وجور ممقوت ومذموم، والفرق بينهما دقيق، لأنَّ المبغض يعلم يقينًا الخير في المبغوض، ولكن يتقطع قلبه حسرة وحقًا وحسدًا وغيظًا، وهذا ليس للمحبيب فتأمل عافانا الله من المنزلتين.

قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١٤) وَيَذْهَبَ عَظَافُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿[التوبة: ١٤، ١٥] بل البعض يوصل الباغض إلى الجحود وهو الإنكار بعد اليقين، وهذا سواد القلب وموته وفساده، وقد قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِيقَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، فأصبح عنده تشبه بحال قريش وبغضهم لمعلم الناس الخير، قال تعالى: ﴿وَهُمْ

يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأنعام: ٢٦] حتى قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقاعدتنا الكلية: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فيدخل في الآيات المسلم والكافر؛ إذ «الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا وجدت العلة وجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم» وكل هذا سببه: فساد المعتقد، وقلة العلم، وجهل يقطع أصحابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله الحكيم الخبير البصير بعباده ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ويلاحظ هذا وبشدة عند بعض طلبة العلم، الذين حادوا ومالوا وزاغوا عن سبيل العلم وانحرفوا عن منهج العلماء الربانيين، إلى مناهج وسُبل الجاهلين والمتعصبين والمبتدعين والضالين، عن مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه السلف الصالحين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فأفسدوا العلم والدين والدعوة إلى الله على بصيرة وحكمة وفهم وفقه وإدراك ووعي متين، فنسأل الله أن يُطَهِّرَ الدعوة إلى الله على بصيرة مَمَّنْ يتحَكَّم فيهم الهوى والحسد والحقد والغل الدفين، اللهم آمين.



القاعدة الثالثة والعشرون

«بلغنا أنَّ الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان»

● وللجنون فنون ومجون وظنون!!!؛ فقد روى أبو نعيم في: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (٨٤٥٥) كلامًا يكتبُ بماء اللؤلؤ والمرجان عن التابعي الجليل عطاء السلمي أنه قال:

«بلغنا أنَّ الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان»!!!

وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، إذ كيف يوجد علم وبيان وتبيان وحجة ومحجة ودليل وبرهان ويقين، وتعقل وحكمة وفطنة وفهم ووعي وإدراك وبصيرة، ثم تكون الشهوة الملعونة، والهوى الذي يُبعد عن الحق؟

فأنى له أن يؤثر فيه شيء، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟! [الجانبية: ٢٣]، وقال ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقَعُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وروى ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١٥) والبيهقي في: «المدخل إلى السنن الكبرى» (٢٠٩)، والخطيب البغدادي في: «تاريخ بغداد» (٣/٣٦٨) وصححه ابن رجب والنووي وقال: حديث صحيح، كما قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص: ٤٠٥)، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/٥٠١): رجاله ثقات، عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه على ما جئت به».

وروى البخاري في «صحيحه» (١٤، ١٥) ومسلم (٤٤)، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ومن أعظم السبل هلاكًا سبيل الهوى، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْآرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ الْكَلْبَ ۚ إِنَّ تَحِيلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصْ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٰ وَمَن يُضِلِلْ فَٱوْلَئِكَ هُمُ ٱلضَّٰلِّينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَآذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَئِكَ كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْفَٰغِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٩].

• وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَٰنٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥٧٩٤) عن التابعي الإمام عامر الشعبي أنه قال في تفسير هذه الآية: «بيان للناس من العمي، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل»، ﴿فَذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ٱلْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَٱتَّقُوا تَصَرُّفَاتٍ﴾؟! [يونس: ٣٢]، والحمد لله رب العالمين.



القاعدة الرابعة والعشرون

«حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، فالمحبة لله من لوازم العبودية وموجباتها ومقتضياتها، والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وخاصة التعبد الحب مع الخضوع والانقياد والذل للمحبوب، فمن أحب محبوباً وخضع له تعبد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب، ومن لوازم المحبة محبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله، فتكون المحبة لله وفي الله وبالله وعلى أمر الله ورسوله ﷺ».

نص هذه القاعدة انتقيتها من جملة مواضع في: «الداء والدواء» (ص: ١٩٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٩) على هذا النحو.

• الميزان الذي يُعرف به من أحبَّ الله حقاً وصدقاً وإخلاصاً:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال السعدي في: «تفسيره» (ص: ١١٧):

«هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحبَّ الله حقيقة، ومن ادَّعى ذلك دعوى مجرّدة، فعلامة محبة الله: اتباع محمد ﷺ؛ الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه؛ طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والسنة وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما، فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين، وغفر ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصدقتها؟ فأجاب سبحانه

بقوله بعد هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وطاعة الله والرسول بامتنال الأمر واجتناب النهي وتصديق الخبر والوقوف عند حدود الله اهـ.

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٤ / ٤٠):

«قال ابن عرفة: المحبة عند العرب إرادة الشيء على قصد له، وقال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما وأتباعه أمرهما، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: لا يغفر لهم؛ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال سهل بن عبد الله التستري: «علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب الله، وحب القرآن، وحب النبي وحب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إِلَّا الزَّادَ وَالبُلْغَةَ» [يعني ما يكفيك فحسب].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تَوْضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءَ فِي الْأَرْضِ»^(١). اهـ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

[مریم: ٩٦].

وقال ابن كثير في: «تفسيره» (٢ / ٢٠):

«هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: «ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ».

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. اهـ.

• قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ١٨٧ وما بعدها):

«والمقصود: أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها، فإن محبة الرسول - بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله، كما في «الصحيحين»^(٢) عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» وفي لفظ: «لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار».

وفي الحديث الذي في السنن قال ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»^(٣).

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه البخاري (١٦)، (٢١)، (٦٠٤١)، (٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٤٦/١١)، والترمذي في «سننه» (٢٥٢١)، وقال: حديث حسن، والحاكم في «المستدرک» (٢٦٩٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وفي حديث آخر قال ﷺ: «ما تحابَّ رجلان في الله، إلا كان أحدهما أشدهما حبًّا لصاحبه»^(١)؛ فإنَّ هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك

[بيان معنى الحديث القدسي «فبي يسمع، وببي يبصر»:]

ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، فأى حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها، وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره، التي كانت منقسمة بكل واحد منها شعبة على الله، فصار ذكر محبوبه الأعلى وحبّه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو التولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده؛ بل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فيه يسمع، وإن بصر فيه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يُبعث، كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه -تبارك وتعالى- أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افترضت عليه، ولا يزال عبدِي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت عن شيء، أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه»^(٢)، فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه

(١) رواه البخاري في: «الأدب المفرد» (٥٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥٠٩)، والحاكم في «المستدرک» (٧٣٢٣)، وصححه ووافقه الذهبي والبخاري في «مسنده» (٦٨٦٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

أَنَّ أَدَاءَ فَرَائِضِهِ أَحَبُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ الْمُتَقَرَّبُونَ ثُمَّ بَعْدَ النَّوَافِلِ ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَزَالُ يَكْثُرُ مِنَ النَّوَافِلِ حَتَّى يُصِيرَ مُحِبُّوًّا لِلَّهِ ، فَإِذَا صَارَ مُحِبُّوًّا لِلَّهِ ، أُوجِبَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُ مَحَبَّةٌ أُخْرَى مِنْهُ لِلَّهِ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ الْأُولَى ، فَشَغَلَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ قَلْبَهُ عَنِ الْفِكْرَةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِغَيْرِ مُحِبُّوبِهِ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ رُوحَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ سَعَةٌ لِغَيْرِ مُحِبُّوبِهِ الْبَتَّةَ ، فَصَارَ ذَكَرَ مُحِبُّوبِهِ وَحَبَّهُ وَمِثْلَهُ الْأَعْلَى مَالِكًا لِرِزَامِ قَلْبِهِ ، مُسْتَوَلِيًّا عَلَى رُوحِهِ اسْتِيلَاءَ الْمُحِبُّوبِ عَلَى مَحَبَّةِ الصَّادِقِ فِي مَحَبَّتِهِ ، الَّتِي قَدْ اجْتَمَعَتْ قُوَى حُبِّهِ كُلِّهَا لَهُ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمُحِبَّ إِنْ سَمِعَ سَمْعًا بِمُحِبُّوبِهِ ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ ، وَإِنْ بَطَشَ بَطَشَ بِهِ ، وَإِنْ مَشَى مَشَى بِهِ ، فَهُوَ فِي قَلْبِهِ وَمَعَهُ وَأُنَيْسَهُ وَصَاحِبَهُ ، فَالْبَاءُ هَاهُنَا لِلْمُصَاحَبَةِ ، وَهِيَ مُصَاحَبَةٌ لَا نَظِيرَ لَهَا ، وَلَا تَدْرِكُ بِمَجْرَدِ الْإِخْبَارِ عَنْهَا وَالْعِلْمِ بِهَا فَالْمَسْأَلَةُ حَالِيَةٌ لَا عِلْمِيَّةٌ مُحَضَّةٌ ، وَإِنْ كَانَ الْمَخْلُوقُ يَجِدُ هَذَا فِي مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ لَهَا وَلَمْ يَفْطَرْ عَلَيْهَا .

وخصَّ في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر ، فإنَّ هذه الآلات آلات الإدراك ، وآلات السمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكرهية ، ويجلبان إليه الحبَّ والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد لله وبصره بالله كان محفوظًا في آلات إدراكه ، وكان محفوظًا في حُبِّهِ وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه .

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنَّه كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذلك حركة اليد والرجل التي لا بُدَّ للعبد منهما ، فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلَّا بقصد واختيار؟ وقد يستغني العبد عنها إلَّا حيث أمر بها ، وأيضًا فانفعال اللسان عن القلب أتمَّ من انفعال سائر الجوارح ، فإنَّه ترجمانه ورسوله ، وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله : «كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها» تحقيقًا لكونه مع عبده ، وكون عبده به في إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله .

وتأمل كيف قال: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش»، فلم يقل فلي يسمع ولي يبصر ولي يبطش، وربما ظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع؛ إذ هي أدلُّ على الغاية ووقوع هذه الأمور لله، وذلك أخص من وقوعها به، وهذا من الوهم والغلط؛ إذ ليست الباء هاهنا لمجرد الاستعانة؛ فإنَّ حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم، وإنَّما الباء هاهنا للمصاحبة؛ أي: إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه، كقوله في الحديث الآخر: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(١)، وهذه المعية الخاصة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقول النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٢)؟ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] فهذه الباء مقيدة لمعنى هذه المعية دون اللام، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل، ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية، فمتى كان العبد هانت عليه المشاق، وانقلبت المخاوف في حقه أمناً، فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسير، ويقرب كل بعيد، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان، فلا همَّ مع الله، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء، فيصير قلبه حينئذٍ كالحوث إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه، ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه، فقال: «ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»؛ أي: كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب إليَّ بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته فيما يسألني أن أفعله به ويستعيذني أن يناله، وقوى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه في إماته عبده؛

(١) رواه ابن ماجه في «سننه» (٣٧٩٢) قال البوصيري في «مصابح الزجاجة» (٢٤٣/٤) على هامش

السنن: «هذا إسناد حسن»، والحاكم في «المستدرک» (١٨٢٤) صححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

لأنَّه يكره الموت ، والرّب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته ، فمن هذه الجهة يقتضي ألا يميته ، ولكن مصلحته في إِمَاتته ، فإنَّه ما أَمَاتَه إِلَّا لِيحييه ، ولا أَمْرَضَه إِلَّا لِيصَحَّه ، ولا أَفْقَرَه إِلَّا لِيغْنِيَه ، ولا مَنَعَه إِلَّا لِيُعْطِيَه ، ولم يخرجِه من الجنَّة في صلب أبيه إِلَّا ليعيده إليها على أحسن أحواله ولم يقل لأبيه : أخرج منها إِلَّا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه ؛ بل لو كان في كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله ، لكان بعض ما يستحقُّه على عبده :

نَقْلُ فَوَادِكْ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَىٰ مَا الْحَبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنَزَلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَىٰ وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنَزَلٍ اهـ.



القاعدة الخامسة والعشرون

«الدين دينان: دين شرعيٍّ أمريٍّ، ودين حسابيٍّ جزائيٍّ، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمراً أو جزاءً والمحبة أصل كل واحد من الدينين وكلاهما صراطه المستقيم سبحانه في أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره».

قال ابن قيم الجوزية في: «الداء والدواء» ص (٢١٤ - ٢١٧):

معنى الدين وأصله:

«كما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل، فهي أصل كل دين سواء كان حقاً أو باطلاً [يعني من تدين بدين حق أو باطل فكلاهما مُراد ومحبوب عن المتدينين من إيمان حق، وضلال فاسد]؛ فإنَّ الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبة والإرادة التي صارت أصل ذلك كله، والدين الطاعة والعبادة والخُلُق، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة، ولهذا فُسِّر الخلق بالدين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة عن ابن عباس قال: لعلّ دين عظيم، وسئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(١).

والدين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه الخضوع والطاعة، كما يقال: دنت لله ودنت لله، وفلان لا يدين الله ديناً، ولا يدين الله بدين، فدان الله: أي أطاع الله وأحبه وخافه، ودان لله: أي خضع له وخضع وذل وانقاد واستجاب، والدين الباطن لا بد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء، بخلاف الدين الظاهر، فإنه لا يستلزم الحب، وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر، وسمّى الله ﷻ يوم القيامة

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (٧٤٦).

يوم الدين، فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك يتضمن جرائهم وحسابهم، فلذلك فُسِّرَ بيوم الجزاء ويوم الحساب، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨١﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧]؛ أي: هَلَّا تردُّون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقَّتْ للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول^(١)، لما بينهما من التلازم، فكل ملزوم دليل على لازمه، ولا يجب العكس ووجه الاستدلال: أنهم إذا انكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإمّا أن يقولوا بأنَّ لهم ربّاً قاهراً لهم متصرفاً فيهم كما سيُسميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإمّا أن يقولوا بربِّ هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به فقد زعموا أنهم غير مربوبين، ولا محكوم عليهم، ولا لهم ربٌّ يتصرف فيهم كما أراد، فهلّا يقدرّون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم؟! وعلى ردِّ الروح إلى مستقرّها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين عند المُحتضر وهم يعانون موته: أي فهلّا تردُّون روحها إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف، ولستم مربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر، تمضي عليكم أحكامه، وتنفذ فيكم أوامره؟! وهذا غاية العجز والتعجيز لهم؛ إذ تبين عجزهم عن ردِّ نفس واحدة من مكان إلى مكان، ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيالها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ووحدانيته، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم.

• والدين دينان: دين شرعيّ أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمراً أو جزاءً، والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإنَّ ما

(١) قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فهذا دليل على الأمر بإقامة الصلاة والزكاة، ومدلول ذلك: الوجوب والفرض والإلزام الحتمي بهذا الأمر، وكذلك النهي، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] فالآية دليل على النهي عن الزنا والمدلول: التحريم والاجتناب.

شرعه سبحانه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه؛ لمنافاته لما يُحِبُّه ويرضاه، فهو يحبُّ ضده، فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به، إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى، كما قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً»^(١).

فهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس، وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه، ويحب من يحبها، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه، فهو على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود -عليه الصلاة والسلام-، أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِّنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [هود: ٦٤-٦٦]، ولما علم نبي الله هود ﷺ أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدرته، ومنعه وعطائه، وعافيته وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس؛ الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب في موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحالته اللائقة به، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء؛ أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف، بل متجرد لله، ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، ذل كل شيء لعظمته فقال: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٦٦]، فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانة دونه، ومثل هذا الأمر أجهل الجهل وأقبح

(١) رواه مسلم (٣٤) في «صحيحه» في كتاب الإيمان.

الظلم، ثُمَّ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فِي كُلِّ مَا يَقْتَضِيهِ وَيُقَدَّرُهُ، فَلَا يَخَافُ الْعَبْدَ جَوْرَهُ وَلَا ظُلْمَهُ سَبْحَانَهُ، فَلَا أَخَافُ دُونَهُ، فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِهِ، وَلَا أَخَافُ جَوْرَهُ وَلَا ظُلْمَهُ؛ فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ مَاضٍ فِي عِبْدِهِ حُكْمُهُ، عَدْلٌ فِيهِ قَضَائُهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، لَا يَخْرُجُ تَصَرُّفُهُ فِي عِبَادِهِ عَنِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، إِنْ أُعْطِيَ وَأَكْرَمَ وَهْدَى وَوَفَّقَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِنْ مَنَعَ وَأَهَانَ وَأَضَلَّ وَخَذَلَ وَأَشَقَّى فَبِعَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي هَذَا وَهَذَا.

• وفي الحديث الصحيح في «مسند أحمد» من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدٌ قَطُّ هَمٌّ وَحَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ ﷻ هَمَّهُ وَحَزَنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا» فقل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ قال: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(١).

وهذا الحديث يتناول حكم الربِّ الكونيِّ والأمرِّيِّ وقضاءه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره، وكلا الحكمين ماضٍ في عبده، وكلا القضاءين عدل فيه، فهذا بحث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب اهـ.

قلت: هذا بحث عقدي توحيدي رصين متين، وبيانه الهام المهم: أَنَّ المحبة والإرادة أصل كل فعل سلبيًا وإيجابيًا، طاعة ومعصية، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقوله ﷺ والذي رواه مسلم في «صحيحه» (٢٢٣) قال: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُوا فَبَائِعَ نَفْسِهِ فَمَعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا».

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٣٧١٢)، والحاكم في «المستدرک» (١٨٧٧)، وصححه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٦/١٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان» وصححه أحمد شاكر في «المسند» ووسَّع الكلام فيه.

شرح النووي في «شرح مسلم» (٣/٢) ما ذكره ابن القيم آنفاً فقال :
 «قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» قال صاحب التحرير رحمه الله: معنى رضيت بالشئ، قنعت به واكتفيت به، ولم أطلب معه غيره، فمعنى الحديث: لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه.

وقال القاضي عياض رحمه الله: معنى الحديث: صح إيمانه واطمأننت به نفسه، وخامر باطنه؛ لأن رضاه بالمذكورات في الحديث، دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه؛ لأن من رضي أمراً سهلاً عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم» اهـ.

قلت: ومدار الأمر ودعامته على الرضى بالقضاء والقدر.

وقال أبو العباس القرطبي في: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١/١٣٠ - ١٣١):

«حلاوة الإيمان: هي عبارة عما يجده المؤمن المحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به، من انشراح وتنويره بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة منة الله تعالى عليه في أن أنعم عليه بالإسلام، ونظمه في سلك أمة محمد خير الأنام، وحبب إليه الإيمان والمؤمنين، وبغض إليه الكفر والكافرين، وأنجاه من قبيح أفعالهم، وركاكة أحوالهم، وعند مطالعة هذه المنن والوقوف على تفاصيل تلك النعم تطير القلوب فرحاً وسروراً، وتمتلئ إشراقاً ونوراً، فيا لها من حلاوة ما ألدّها! وحالة ما أشرفها! فنسأل الله تعالى أن يمنّ بدوامها وكمالها، كما منّ بابتدائها وحصولها، فإن المؤمن عند تذّكر تلك النعم والمنن لا يخلو عن إدراك تلك الحلاوة، غير أن المؤمنين في تمكّنها ودوامها متفاوتون، وما منهم إلا وله منها شرب، وذلك بحسب ما قُسم لهم من هذه المجاهدة والمنح الربّانية.

وقوله ﷺ: «من رضي بالله رباً» فالرضا بهذه الأمور على قسمين: رضا عام

وهو: ألا يتخذ غير الله ربًّا، ولا غير دين الإسلام دينًا، ولا غير محمد رسولًا، وهذا الرضا لا يخلو عنه مسلم، إذ لا يصح التدين بدين إلا بذلك الرضا.

والرضا الثاني: قسمان: رضا به ورضا عنه، فالرضا به مدبرًا، والرضا عنه فيما قضى وهو سكون القلب إلى أحكام الرب، وموافقته على ما رضى واختار.

وعلى الجملة: فالرضا باب الله الأعظم، وفيه جماع الخير كله، كما قال عمر بن الخطاب لأبي موسى فيما كتب إليه: أمّا بعد! فإنّ الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر» اهـ.



القاعدة السادسة والعشرون

«دواعي محبة الله: الجمال والجلال المطلق، ولكمال نعيم القلب: كمال المحبوب في نفسه وجماله وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه، وكمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار قربه والوصول إليه بكل شيء، والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يوالِيهم بمحبته لهم».

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقال ﷺ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُمُ الْفَارِزُونَ﴾ ❶ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّتِ لَهُمْ فِيهَا نِعِيمٌ مُّقِيمٌ ❷ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ❸ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَجَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ❹ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٤].

قال السعدي في: «تفسيره» (ص: ٣١١):

«يقول تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به، ﴿لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب

النَّاسَ إِلَيْكُمْ، وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى، فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ ﴿أَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَحَبُّوا﴾؛ أَي: اخْتَارُوا عَلَى وَجْهِ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [وَيُقَاسُ عَلَى ذَلِكَ: الْأَقَارِبُ الْمُسْلِمِينَ؛ لِاشْتِرَاكِ عِلَّةِ الْمَعْصِيَةِ بِالْفُسُوقِ وَالْكَبَائِرِ الْمَحْرُمَةِ الَّتِي أُعْظِمَهَا الشَّرِكُ]، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ تَجَرَّأُوا عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ، وَاتَّخَذُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ: الْمَحَبَّةُ وَالنَّصْرَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ اتِّخَاذَهُمْ أَوْلِيَاءَ مُوجِبٌ لِتَقْدِيمِ طَاعَتِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِمْ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ السَّبَبَ الْمَوْجِبَ لَذَلِكَ وَهُوَ: أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ يَتَعَيَّنُ تَقْدِيمُهُمَا عَلَى مَحَبَّةِ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَابِعَةً لِهَئِمَا فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَمِثْلُهُمُ الْأَمْهَاتُ، وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ فِي النِّسْبِ وَالْعَشِيرَةِ ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أَي: قَرَابَاتِكُمْ عَمُومًا، ﴿وَأَمْوَالُكُمْ أَفْتَرْتُمُوهَا﴾؛ أَي: اكْتَسَبْتُمُوهَا، وَتَعَبْتُمْ فِي تَحْصِيلِهَا؛ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَرْغَبُ عِنْدَ أَهْلِهَا، وَصَاحِبُهَا أَشَدُّ حَرَصًا عَلَيْهَا مِمَّنْ تَأْتِيهِ الْأَمْوَالُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا كَدٍّ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ تَحْشُونَ كَسَادَهَا﴾؛ أَي: رَخَصَهَا وَنَقَصَهَا، وَهَذَا شَامِلٌ لَجَمِيعِ أَنْوَاعِ التِّجَارَاتِ مِنَ الْأَثْمَانِ وَالْأَوَانِي وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْحُبُوبِ وَالْحُرُوثِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحُلِيِّ وَمَتَعِ الدُّنْيَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمَسْكَنُكُمْ تَرْضَوْنَهَا﴾ مِنْ حُسْنِهَا وَزَخْرَفَتِهَا، وَمَوَافَقَتِهَا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فَانْتُمْ فِسْقَةٌ ظَلَمَةٌ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾؛ أَي: انْتَظَرُوا مَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنَ الْعِقَابِ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أَي: الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، الْمَقْدَمِينَ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْجَلِيلَةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَعْظَمَ دَلِيلَ عَلَى وَجُوبِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَلَى تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَى الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالْمَقْتِ الْأَكِيدِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ، أَحَدُهُمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَيْسَ لِنَفْسِهِ فِيهَا هَوًى، وَالْآخَرُ تَحِبُّهُ نَفْسُهُ وَتَشْتَهِيهِ، وَلَكِنَّهُ يُفَوِّتُ عَلَيْهِ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَنْقُصُهُ، فَإِنَّهُ إِنْ قَدَّمَ مَا تَهَوَّاهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ ظَالِمٌ تَارِكٌ لِمَا يُجِبُّ عَلَيْهِ» اهـ.

قلت: ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَعْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلَكَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

• قال ابن القيم في: «الداء والدواء» (ص: ٢٣٩ وما بعدها) مختصراً وانتقاءً:

«اعلم أنَّ أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها، محبة من جُبلت القلوب على محبته، وفُطرت الخليفة على تأليهه، وبها قامت السماوات والأرض، وعليها فُطرت المخلوقات وهي: سر شهادة أن لا إله إلا الله، فإنَّ الإله هو الذي تأله القلوب بالمحبة والإجلال، والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد والانقياد، والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هي: كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالى يُحِبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنَّما يُحِبُّ تبعاً لمحبيته. وقد دلَّ على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما رُكِّب فيهم من العقول، وما أُسبغ عليهم من النعم، فإنَّ القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كان الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْثَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وما تعرّف به إلى عباده من أسمائه الحسنی وصفاته العلی، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله وبهائه وجلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال والجلال، والرب له الكمال المطلق من ذلك؛ فإنَّه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يُحِبَّ لذاته من كل وجه سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ

يَقْوِمُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَليُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿المائدة: ٥٤-٥٦﴾، والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، واللّه ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، وهو وليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده المؤمن بحسب محبته له، ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء، بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من سَوَّى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وأخبر عمن يسوي بينه وبين الأنداد في الحب، أنهم يقولون في النار لمعبودهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَیْ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٩٧﴾ إِذْ سُئِلْتُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السماوات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين به فيه، وقد أقسم النبي ﷺ أنه: «لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١)، فكيف بمحبة الرب ﷻ؟

إذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها، أفليس الرب ﷻ وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جدّه ولا إله غيره أولى بمحبة عباده أنفسهم؟ وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعو إلى محبته، ممّا يحب العبد ويكره فعطائه ومنه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحيائه، ولطفه وبرّه، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه

وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه، كل ذلك داع للقلوب إلى تأله ومحبه، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانتة عليها، وستره حتى يقضي وطره منها وكلاءته وحراسته له، ويقضي وطره من معصيته، يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي إلى محبه، فلو أنَّ مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخير له نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه إليه يصدّه عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه، يقطع إحسان ربه عنه، فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه، وتعلقها بحبه سواه.

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلّا هو، ولا يذهب بالسيئات إلّا هو، ولا يجيب الدعوات إلّا هو، ويقبل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟ فهو أحقّ من ذكر، وأحقّ من شكر، وأحقّ من عُبد، وأحقّ من حُمِد، وأبصر من ابتغى، وأرأف من ملك، وأجود من سُئِل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، وأعزّ من التَّجىّ، وأكفى من توكَّل العبد عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشدّ فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئسّ من الحياة ثمّ وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ندّ له، كل شيء هالك إلّا وجهه الكريم، لن يطاع إلّا بإذنه، ولن يُعصى إلّا بعلمه، يُطاع فيشكر، ويتوفيقه ونعمته أطيع، ويعصى فيغفر، ويعفو وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجلّ حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل بالقسط، جال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الأجل، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلّت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه

الظلمات، واستنارت له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات.
 قال ﷺ: «لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور، ولو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١)، وها هنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:
 أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه بكل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته، وتُحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه من الوجوه، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، والله سبحانه خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، وأما هذه الدار فمنقطعة، ولذاتها لا تصفوا أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة، فإن لذتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين مع الخلود أبدًا، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه يقوله تعالى: ﴿يَقَوْمِ أَتَبْغُونِ أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩].

فأخبرهم أَنَّ الدُّنْيَا مُتَاعٌ يُتَمَتَّعُ بِهَا إِلَى غَيْرِهَا ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْمُسْتَقَرِّ ، وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ لِدَاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا مُتَاعٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى لِدَاتِ الْآخِرَةِ ؛ وَلِذَلِكَ خُلِقَتْ الدُّنْيَا وَلِدَاتُهَا ، فَكُلُّ لَذَّةٍ أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَأَوْصَلَتْ إِلَيْهَا لَمْ يَذُمَّ تَنَاوُلُهَا ، بَلْ تُحْمَدُ بِحَسَبِ إِيصَالِهَا إِلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ ، إِذَا عُرِفَ هَذَا ، فَأَعْظَمُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَلِدَاتُهَا : هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ ﷻ وَسَمَاعُ كَلَامِهِ وَالْقُرْبُ مِنْهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» فِي حَدِيثِ الرَّوْيَةِ قَالَ ﷺ : «فَوَاللَّهِ مَا أُعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»^(١) ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ ﷺ : «إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ ، نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ»^(٢) ، وَفِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» مِنْ حَدِيثِ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي دَعَائِهِ : «أَسْأَلُكَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ»^(٣) ، فَكَيْفَ بِالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ ، وَلَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةٌ ، وَلَا نَعِيمٌ ، وَلَا فَلَاحٌ ، وَلَا حَيَاةٌ ، إِلَّا بِهَا ؟ وَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلَمُهَا أَعْظَمَ مِنْ أَلَمِ الْعَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا ، وَالْأُذُنُ إِذَا فَقَدَتْ سَمْعَهَا ، وَالْأَنْفُ إِذَا فَقَدَتْ شَمَّهُ ، وَاللِّسَانُ إِذَا فَقَدَ نَطْقَهُ ، بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارئِهِ وَإِلَهِهِ الْحَقِّ ، أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ الْبَدَنِ إِذَا خَلَا مِنَ الرُّوحِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَصْدُقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ ، وَلَا لَجَرَحُ بِمِيتِ إِيْلَامٍ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ أَعْظَمَ لِدَاتِ الدُّنْيَا هُوَ السَّبَبُ الْمَوْصِلُ إِلَى أَعْظَمِ لَذَّةٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تَنُورُ الْوَجْهَ ، وَتُشْرِحُ الصَّدْرَ ، وَتُحْيِي الْقُلُوبَ ، أَلَا وَهِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ أَهـ .



(١) رواه مسلم (١٨١) في «صحيحه» في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٤) في «سننه» في المقدمة ، وابن أبي الدنيا في : «صفة الجنة» (٩٨) ، والذهبي في «العلو» (٢٣) .

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٥١) ، والنسائي (١٣٠٥) ، والحاكم في «المستدرک» (١٩٢٣) ، وصححه ووافقه الذهبي .

القاعدة السابعة والعشرون

«أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شَفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»

روى أحمد في «مسنده» (٣٠٥٧) وأبو داود في «سننه» (٣٣٦) وصححه الشيخ أحمد شاكر في «المسند» ووسع فيه القول مفصلاً، وابن ماجه في «سننه» (٥٧٢) وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧٣)، وابن حبان (١٣١٤)، عن عبد الله بن عباس قال: أصاب رجلاً جرح في عهد رسول الله ﷺ، وفي رواية جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشق في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟

فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال».

قال أبو سليمان الخطابي في: «معالم السنن شرح سنن أبي داود» (٨٩/١) حديث رقم (١٠٧):

«في هذا الحديث من العلم أنه عابهم بالفتوى بغير علم، وألحق بهم الوعيد؛ بأن دعا عليهم وجعلهم في الإثم قتلة له» اهـ.

وقال أبو الطيب في: «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣٥٥/١):

«قوله ﷺ: «قتلوه» أسند ﷺ القتل إليهم لأنهم تسبوا له بتكليفهم له باستعمال الماء مع وجود الجرح في رأسه؛ ليكون أدل على الإنكار عليهم، قوله: «قتلهم الله» إنما قاله زجراً وتهديداً لهم على تجرؤهم على الفتوى بدون علم، «فإنما شفاء العي السؤال» العي: بكسر العين وتشديد الياء، وهو التجبر في الكلام وعدم الضبط، والمعنى: أن الجاهل داء وشفاءها السؤال والتعلم، وقوله ﷺ: «ألا سألوا؟» «ألا» حرف تحضيض دخل على الماضي فأفاد التنديم اهـ.

قلت: وظاهر الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غضب غضباً شديداً حتى دعا عليهم وزجرهم؛ لأنَّ التكلم بدون علم من أكبر الكبائر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فذكر الله العليم الخبير الحكيم في الآية المحرّمات الكبرى حتى ذكر الشرك بالله ثم عطف على الشرك التكلم في دين الله ممن ليس أهلاً لهذه المكانة العالية الرفيعة الخطيرة؛ لأنّه لا ينبغي أن يتجرأ أحد على الفتوى حتى يلملم بشروطها، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فعطف سبحانه شهادة الملائكة وأهل العلم على شهادته، فكيف يتجرأ عاقل على الارتقاء إلى منزلة ورثة الأنبياء وخلفائه، بلا دليل، ولا برهان، ولا بينة عليمه، ولا حجة بمحجّة؟!

وروى البخاري في «صحيحه» (١٠٠) باب كيف يُقبض العلم، في كتاب العلم، ومسلم (٢٦٧٣) في «صحيحه» من كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن آخر الزمان من حديث عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُحَاهَا لَا فَسْطُولًا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» .

• الداء والدواء، فإنما العلم أعظم الشفاء:

وحرف «إنما» للحصر بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وأجلّ الشفاء كتاب الله، الذي فيه شفاء الأرواح، والقلوب، والصدور، وكذلك الأبدان، ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وكما مرّ؛ أن «من» هنا بيان للجنس، لا للتبعية، فكل القرآن شفاء وهدى ورحمة ولا يستقيم ذلك ويكون كذلك؛ إلّا بالتدبّر لكتاب الله، وفهم مراد الله من آيات الذكر الحكيم، والتبصر والتفقه في القرآن العظيم، والإدراك والوعي لحبل الله المتين، آية آية، وكلمة كلمة، وحرف

حرف؛ فهو الكافي الشافي في الزمان والمكان، ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبُوا
ءَايَتِهِ وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .



القاعدة الثامنة والعشرون

«مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصليين: فساد العلم، وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما: الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها»

هذه القاعدة جزء من كلام في غاية الجودة والتأصيل العلمي، وهو الذي رصَّعهُ الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه الجليل: «مدارج السالكين بين منازل إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» (١/ ٥٢ - ٥٥) حيث قال رَحِمَهُ اللهُ:

«● فصل: في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين، شفاء القلوب، وشفاء الأبدان: فأما اشتمالها على شفاء القلوب؛ فإنَّها اشتملت عليه أتمَّ اشتمال؛ فإنَّ مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصليين: فساد العلم، وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما: الضلال والغضب ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالضلال نتيجة لفساد العلم، والغضب نتيجة لفساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعًا.

فهذه الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال؛ ولذلك كان سؤال هذه الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أفرض دعاء على كلِّ عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة؛ لشدة ضرورته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال شيء مقامه.

والتحقيق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] علمًا، وعملاً، وحالًا، يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد؛ فإنَّ فساد القصد يتعلق بالغايات، والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية [من متع ولذات

الدنيا]، وتوسّل إليها بأنواع الوسائل الموصّلة إليها، كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كلّ من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين، وكذلك متبعي الشهوات [من المسلمين] الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات والمتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم بأي طريق طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل^(١)، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدّون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بُدّاً أعطوه السكة [يعني المال والنقود]، والخطبة [التكلم بلا عمل ولا تأثير]، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم، صالوا به وجالوا وأتوا مدعنين، لا لأنّه حق؛ بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم» ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠]، والمقصود: أنّ قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم النَّاسِ ندامة وتحسّراً، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب السعادة.

وهذا يظهر كثيراً في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتدّ ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء؛ إذا حُقت الحقائق، وفاز المحقّقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين وكانوا مخدوعين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا يُنَجِّي مستيقنه.

(١) الصائل: هو المعتدي الذي يهّم بالاعتداء على النفس بالقتل أو الجرح أو المال أو العرض، ودفع الصائل: يكون ضد المعتدي الصائل بما يمكن من وسائل الدفع والصد والمراد: أنّ هذا المعتدي يدفع عن نفسه ما يُعطّل ضلاله وفساده، وكأنه معتدى عليه!!!

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنّها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلّا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

• [تركيب الدواء من ستة أجزاء]

فإذاً هذا الدواء مُركَّب من ستة أجزاء: ١- عبودية الله لا غيره، ٢- بأمره وشرعه، ٣- لا بالهوى، ٤- ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم، ٥- بالاستعانة على عبوديته، ٦- لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإذا ركبها الطبيب اللطيف الحاذق العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر.

[القلب يُعرض له مرضان عظيمان]

ثمَّ إنَّ القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرياء والكبر، فدواء الرياء: بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًا به، من معاني هذه السورة، وأمّا شفاء الأبدان اهـ.

فذكر حديث النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ» رواه البخاري (٥٧٣٧) في «صحيحه».

وقد مرَّ مفصلاً لما رقى الصحابي سيد القوم لما لدغ بسورة الفاتحة فبرأ بإذن الله.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي: «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (ص: ٥٨):

«وَأَمَّا شَهَادَةُ التَّجَارِبِ بِذَلِكَ: فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَذَكَّرَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا مِنْ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي أُمُورًا عَجِيبَةً، وَلَا سَيِّمًا مَدَّةَ الْمَقَامِ بِمَكَّةَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعْضُضُ لِي الْآمُ مَزْعَجَةً، بِحَيْثُ تَكَادُ تَقْطَعُ الْحَرَكَةَ مِنِّي، وَذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ وَغَيْرِهِ، فَأَبَادِرُ إِلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، وَأَمْسَحُ بِهَا عَلَى مَحَلِّ الْأَلَمِ، فَكَأَنَّهُ حَصَاةٌ تَسْقُطُ جَرَّبْتُ ذَلِكَ مَرَارًا عَدِيدَةً، وَكُنْتُ أَخْذُ قَدْحًا مِنْ مَاءٍ زَمْزَمٍ فَأَقْرَأُ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةَ مَرَارًا، فَأَشْرِبُهُ فَأَجِدُ بِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْقُوَّةِ مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ فِي الدَّوَاءِ، وَالْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَصَحَّةِ الْيَقِينِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ» اهـ.



القاعدة التاسعة والعشرون وخاتمة القواعد ولوازمها
«لا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين
عظيمين، أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص
للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وبني ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾
على أربع قواعد: التحقيق بما يحبه الله ويرضاه من قول اللسان
والقلب، وعمل القلب والجوارح، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام
لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها، و﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب
للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما،
وسلوك طريق السالكين إلى الله بها»

هذه القاعدة مُستنبطة من «مدارج السالكين» (١/ ٨٣، ١٠٠، ١٠١) وشرح

ذلك ما قاله ابن القيم مختصراً:

«أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة؛
فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم، وبعضهم
له، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء
ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم،
ولا هرباً من ذمهم، بل قد عدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم
ضراً ولا نفعاً ولا موتاً وحياة ولا نشوراً، فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه
والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم، لا يكون من عارف بهم البتة، بل
من جاهل بشأنهم وجهل برّبه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم.
ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه، وحبّه وبغضه،

ولا يعامل أحدُ الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف النَّاس أثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يُحِبُّه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلَا عباده بالموت والحياة لأجله، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٠]، وجعل ما على الأرض زينه لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن أخلصه وأصوبه»، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إِنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فلا يقبل الله منه العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُردّ عليه -أحوج ما هو عليه- هباءً منثورًا، وفي «الصحيح» من حديث عائشة عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «من عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(١)، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإنَّ الله تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

وبُني ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربعة قواعد: التحقيق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح، فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًا هم أصحابها. فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والمواالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبارات إليه والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فَرَضَهَا أَفْرَضَ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَمُسْتَحَبَّهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُسْتَحَبَّهَا، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ بَدُونَهَا، إِمَّا عَدِيمُ الْمُنْفَعَةِ أَوْ قَلِيلُ الْمُنْفَعَةِ.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

ف﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزامٌ لأحكام هذه الأربعة وإقرارٌ بها، و﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلبٌ للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمنٌ للتعريف بالأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها اهـ.

• وفي موضع من: «مدارج السالكين» (١/ ٧٤-٧٩) مختصراً قال ابن القيم: «وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المِفْصَلِ، وجمع معاني المِفْصَلِ في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الربّ وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفهما لعبده وهو: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فالعبادة تجمع أصليين: غاية الحبّ بغاية الذل والخضوع، والاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

والتوكل: معنى يلتئم من أصلين: من الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذان الأصلان - وهما التوكل والعبادة - وقد ذكر في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما فيها، هذا أحدها، والثاني: قول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، والثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مـود: ٢٣]، والرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]، الخامس: قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرِ أُمَّةَ رَيْكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۗ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩]، السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠].

وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها؛ ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بالوحيته واسمه «الله» و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كما قدم اسم «الله» على «الرب»، في أول السورة، ولأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له وهو: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أنَّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عنده الحاجة ليقضيها له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبتة له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا لا بُحلاً، وهذا إنما يفعله بعبد الذي يريد كرامته ومحبتة ويعامله بلطفه، فيظن - بجهله - أنَّ الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنَّه بربه، وهذا حشوقه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعاجز الرأي مضياح لفرضته حتى إذا فات أمر عاتب القدر
فوالله لو كشف عن حاصله وسره، لرأي هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد
كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس لي؟ والعاقل خصم
نفسه، والجاهل خصم أقدار ربّه اهـ.

هذه القاعدة الكبرى في الشفاء، فإنّ كمال التوحيد أصله البناء:

لقد اشتملت خاتمة القواعد هذه توحيد الألوهية والربوبية والأسماء
والصفات، وبه يستقر اليقين الحق بالله، وقوة الإيمان، وصحة الثقة بالله، فإنّ
ملاك العبودية ومدارها قائم على ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وهذا العلم بوحداية الله يترتب عليه القول والعمل والنية ومتابعة السُنّة؛ فإذا
تحصّل ذلك شُفيّت القلوب والأبدان، وحدث الثبات والاطمئنان، بطاعة الله
والرسول والانقياد والإذعان، فصحة التوحيد موصّلة لشفاء القلوب، الذي بدوره
شفاء للصدر والأبدان، والله المستعان وعليه التكلان.

هذا آخر ما كان من قواعد كتابي هذا المستنبطة من الكتاب الجليل «الجواب
الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» أو «الداء والدواء»، حتى وصلت القواعد إلى
تسع وعشرين قاعدة، أردت بهن التقريب والتهديب والاختصار لمضمون هذا
السّفر، وذلك على ضوء التقعيد الشرعيّ، إذ منهج القواعد الشرعية إنّما هو إيجاد
أحكام كلية تنطبق على جميع جزئيات الأمر المُقعدّ له، بمثابة التأسيس والتأسيس
والتدعيم القانوني الشرعي؛ وذلك لحصر المضمون والغاية والهدف المراد،
للوصل لمعرفة مقصود الكتاب والسُنّة، تقرّباً إلى الله وبالله وفي الله، وعلى سنة
رسول الله ﷺ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل. وصلى الله وسلم على
محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

الدكتور عيد أبو السعود الكيال

الباحث الشرعي في مسائل الدين

«فهرس الكتاب»

- «بداية التأصيل والقول الجليل» ٣
- فساد العباد والبلاد وخراب أمورها وشؤونها معصية الله ورسوله ﷺ ٥

«افتتاحية الكتاب»

- ٦ «الله الطبيب وهو الشافي القريب»

ذكر القواعد الكلية في الأشفية الشرعية سردًا مجملًا بنصوصها

- ٨ ثم يلحقها البيان

١٣ «مقدمة الكتاب»

- ترجمة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ١٦
- بدء الكلام في مُصَنَّفِي هذا ١٩
- سبب تصنيفي لهذا الكتاب ١٩
- منهجي في كتابة هذا التأليف وصفة تقعيدي العلمي الاستدلالي فيه ٢٠

٢٤ «قواعد الكتاب وفتح المقيت الوهاب»

القاعدة الأولى

٢٤ «القرآن والسنة شفاء للقلب والروح والبدن والجهل والابتداع»

- القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض ٢٧
- ظهور العموم الكلي في الشفاء أول ما بدأ به ابن قيم الجوزية في كتابه الداء والدواء ٢٧

القاعدة الثانية

«شروط الشفاء الشرعي: قبول المحل، وقوة همّة الفاعل وتأثيره،

٢٩ وإلا فلا ينجع ولا ينفع»

- يكفي للدعاء بالشفاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح ٣٠

القاعدة الثالثة

- ٣٢ «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض»
- ٣٤ • الدعاء معظم العبادة وركنه
- لا يُقبل الدعاء ولا يستجاب إلا بطاعة الله وتقواه والبعد عن محارمه وذلك
- ٣٦ هو الرشاد
- ٣٧ • شروط الدعاء وأركانه المجموعة وفقه المسألة
- ٣٩ • الصلة بين الشفاء الشرعي والدعاء

القاعدة الرابعة:

- «الأسفية الشرعية والأدعية وسائل لها أحكام المقاصد، والمقصود رضى الله، وصفة
- هذه الوسائل ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب
- ٤١ وعلى ذلك القرآن والسنة وإجماع الأمة»

القاعدة الخامسة

- «جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره وأمر الله الشرعي بأن نزيل الشر بالخير
- ٤٦ بحسب الإمكان»

القاعدة السادسة

- «اجتماع التصديق الجازم بالوعد والوعيد وتخلف العمل مرض عضال، وسببه ضعف
- ٥٣ العلم واليقين مع غلبة الهوى وضعف البصيرة والصبر، وشفافه قوة ذلك المذكور»
- ٥٤ • بيان العلم واليقين لغةً وشرعاً
- ٥٦ • الهدى معرفة الحق والعمل به
- ٥٧ • لا رأي لأحد مع سنة سنّها رسول الله
- ٥٨ • لا علم ولا بيان ولا عقل مع فساد المعتقد
- ٥٩ • بيان صفة الحياة الشرعية الطيبة

القاعدة السابعة

- «لا يوجد في الدنيا والآخرة شرّ وداء ومرض وفساد إلا بسبب الذنوب والمعاصي، وإنَّ
- ٦٢ ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان»

- ما أهون الخلق على الله ﷻ إذا هم أضاعوا أمره!!! ٦٢
- خمس إذا ابتليتم بهنَّ!!! ٦٥
- كيف يُسلط الله علينا ذلاً فلا ينزعه حتى؟! ٦٧

القاعدة الثامنة وبيان آثار المعاصي ومفاسدها

«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا

- وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ» ٦٩
- إقامة الدين بين الريادة والإبادة: ٧١

القاعدة التاسعة

- «الْبِرُّ لَا يَبْلَى وَالذَّنْبُ لَا يُنْسَى» ٧٥

القاعدة العاشرة وكوارث الذنوب والمعاصي

«حرمان العلم، والضيق في الرزق، ووحشة في القلب، ووحشة لأهل الصلاح والخير، وتعسير للأموار، وظلمة في القلب، ووهن في البدن والقلب، وحرمان الطاعة، ونقصان العمر ومحو بركته، والجرأة على الحرام فيولد بعضه بعضاً، وضعف إرادة القلب وتقويه إرادة المعصية، وعدم استقباحها، وهوان العاصي على ربه وسقوطه من عينه، وشؤم على نفسه وعلى غيره، وتوريث الذلّ، وفساد العقل وإطفاء نوره، والطبع والران على القلب، وتوريث اللعنة على صاحبها، وحرمان دعوة الرسول ﷺ ودعوة الملائكة له، وإفساد في الأرض على الحرث والنسل والماء والهواء والزروع والثمار والمساكن، وسبب للخراب والخسف والزلازل، ومحو الغيرة، وذهاب الحياء، وعدم تعظيم الرب سبحانه، ورفع مهابته من قلوب الخلق، ونسيان الله للعبد وتركه، ونسيان العاصي لنفسه، وضعف السير بالقلب إلى الله والدار الآخرة، أو الإعاقة عن ذلك، وزوال النعم وحلول النقم، وعدم السكون والطمأنينة مع وجود الخوف والرَّغْب، وصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، وعمى بصيرة القلب وطمس نوره وسد طرق العلم، وحجب موارد الهداية، وتصغير النفس وقمعها وتحقيرها وتدسيسها، وكونه في أسر الشيطان وشجن شهواته

وقيود هواه، وسقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، واستجلاب موارد الهلاك في دنياه وآخرته، فكل ذلك وغيره هي الثمار العطبة القبيحة المذمومة الكائنة

٧٨

من رحم المعصية»

٨٣

• جملة من الأحاديث في القاعدة

• قاعدة ووصية ذهبية عجزت أن أعنون لها في كتابي هذا حتى يُعبر عنها

٨٤

صاحبها

٨٦

• كلام في غاية القوة في القاعدة

٩٣

• إجماع في المسألة

٩٤

• الاستجابة لله وللرسول هي دواء القلوب من أمراضها

• ما أنقص عقل من باع الدرّ بالبعر، والمُسك بالرجيع ولكن الجائحة عامة،

٩٦

والجنون فنون، وفساد المعتقد مجون

٩٨

• البركة ضدّ اللعنة

القاعدة الحادية عشرة

«الكمال الإنساني مداره على أصليين: معرفة الحق والعمل به تحقيقًا وتنفيذًا، والثاني:

البصيرة في الدين، فبهما يكتمل إدراك الحق من الباطل ويتم تنفيذه، ويمنع منهما

١٠٠

عمى القلب والبصيرة أو ضعفهما، ومدار المنع على معصية الله»

١٠١

• ليس كل سوداء تمرة، ولا كل بيضاء شحمة

١٠١

• انقسام الخلق في التبصر في الدين وتنفيذ الحق أربعة أقسام

القاعدة الثانية عشرة

«أصل الذنوب والمعاصي نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، وهما اللذان ابتلى الله

بهما أبوي الجن والإنس، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن

في القلوب، وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق لخلق فلهو

١٠٤

متضمن لحقه، لكن سُمي حقًا للخلق؛ لأنّه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم»

القاعدة الثالثة عشرة

المعاصي القلبية: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على

القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرَّين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار،
والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرّب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك
إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، وصرف
القلوب عن الحق، وزيادتها مرضاً على مرض، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى
منكوسة، والتثبيط عن الطاعة والإقعاد عنها، وجعل القلب أصمّ لا يسمع الحق، أبكم
لا ينطق به، وأعمى لا يراه، وخسف القلب، ومسح القلب، ومكر الله بالماكر، وحجاب
القلب عن الرّب، والمعيشة الضنك، والخروج عن الصراط المستقيم»

١٠٨

• فلماً زاغوا أزاغ الله قلوبهم ١٠٩

القاعدة الرابعة عشرة

«وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يُقال: إِنَّ اللَّهَ رَكَّبَكَ أَرْسَلَ رَسْلَهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَخَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرِفَ وَيُعْبَدَ وَيُؤَخِّدَ؛ وَلَا يُعْصَى وَيَكُونُ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَالطَّاعَةُ كُلُّهَا
لَهُ؛ وَالدَّعْوَةُ لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]،
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] فَأَخْبِر
سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرَ: أَنْ يُعْرِفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ،
وَأَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»

١١٥

• بَيَانُ أَنَّ الشَّرْكَ أَكْثَرُ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الْكِبَارِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ١١٦

القاعدة الخامسة عشرة

«مِنْ خِصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ التَّفَرُّدُ بِمُلْكِ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ مِنْ
جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَالْعِبَادِيَّةُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى سَاقَيْنِ لَا قِوَامَ لَهَا بِدُونَهُمَا: غَايَةُ الْحُبِّ، مَعَ
غَايَةِ الذِّلِّ، هَذَا تَمَامُ الْعِبَادِيَّةِ»

١١٨

القاعدة السادسة عشرة

«الْقُدُّوسُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَهُوَ مَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِكُلِّ كَمَالٍ وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ
نَقْصٍ، وَمِنْ أَشَدِّ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمَسِيءَ بِهِ الظَّنُّ هُوَ خِلَافُ وَكَمَالِهِ
الْمُقَدَّسِ، وَظَنُّ بِمَا يَنْقُضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَهَذَا قَدْحٌ فِي الْإِلَوهِيَّةِ عَظِيمٌ»

١٢١

قاعدة متفرعة منها

«الْقَدْرِي وَالْجَبْرِي وَالْمَوْوِل وَالْمَحْرَف، وَالنَافِي لِاسْتَوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَنْ نَفَى إِسْرَالَ الرِّسْلِ، وَمَنْ جَعَلَ لِلَّهِ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَجَهِلُوا قَدْسِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ وَعَصَاوَا اللَّهَ فِي أَعْظَمِ صِفَاتِهِ وَنَسَبُوهُ إِلَى مَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ»

١٢٣

القاعدة السابعة عشرة

«لِسُوءِ الْخَاتَمَةِ أَسْبَابٍ وَلَهَا طَرَقٌ وَأَبْوَابٌ، أَعْظَمُهَا: الْإِنْكَبَابُ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْآخِرَةِ، وَالْإِقْدَامُ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ ﷻ وَالْجَرَاءُ عَلَيْهَا، وَقَدْ يَغْلِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ ضَرْبٌ مِنَ الْخَطِيئَةِ وَنَوْعٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَجَانِبٌ مِنَ الْإِعْرَاضِ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْجَرَاءِ وَالْإِقْدَامِ، فَسَلِكْ قَلْبَهُ، وَسَبِّ عَقْلَهُ، وَأَطْفَأْ نُورَهُ، وَأَرْسِلْ عَلَيْهِ حُجْبَهُ، فَلَمْ تَنْفَعْ فِيهِ تَذَكُّرَةٌ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِ مَوْعِظَةٌ، أَمَّا مِنْ اسْتِقَامَ ظَاهِرِهِ وَصَلَحَ بَاطِنُهُ سِرَّتَهُ خَاتَمَتُهُ وَاسْتَبَشَرَ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ»

١٢٧

• وَمِنْ هَذَا خَافَ السَّلَفُ مِنَ الذُّنُوبِ أَنْ تَكُونَ حِجَابًا عَنْ حَسَنِ الْخَاتَمَةِ ... ١٢٨

القاعدة الثامنة عشرة

«أَكْثَرُ مَا تَدْخُلُ الْمَعَاصِي عَلَى الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ: اللَّحْظَاتُ، وَالْخَطَرَاتُ، وَاللَّفْظَاتُ، وَالْخَطَوَاتُ، مَقَدِّمَاتُ بَيْنِ يَدَيِ التَّحْرِيمِ»

١٣٠

• الْخَطَرَاتُ أَقْسَامٌ تَدُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ ١٣٢

• قَاعِدَةُ فِقْهِيَّةٍ مُهِمَّةٌ فِي الْبَابِ ١٣٣

• خَمْسُ خَطَرَاتٍ هِيَ لِلَّهِ ١٣٣

• الْقُلُوبُ قُدُورٌ تَغْلِي بِمَا فِيهَا : ١٣٥

القاعدة التاسعة عشرة

«اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَنُورُ الْقُرْآنِ، يُحْيِي بِهِ الْمَوْتَى، وَيَهْتَدِي بِهِ الضَّلَالُ، وَيُسْتَشْفَى بِهِ الْمَرَضَى، مَرَضَى الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَا يَشَاءُ»

١٣٨

• بَيَانُ مَعْنَى النُّورِ مِنْ سُورَةِ النُّورِ ١٣٩

• تَفْسِيرُ ابْنِ الْقَيِّمِ لِآيَةِ سُورَةِ النُّورِ ١٤٢

- بيان مهم ١٤٣
- «والكلام في دواء هذا الداء من طريقين وهو داء الفاحشة ١٤٤
- منافع غض البصر ١٤٤
- الطريق الثاني المانع من الحصول تعلق القلب ١٤٦
- لابد للشفاء والعلاج من بصيرة صحيحة وعزم قوي وصبر ١٤٦

القاعدة العشرون

«الْعَمَى عَمَى الْعَيْنِ وَالْبَصَرُ، وَالْعَمَةُ عَمَى الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةُ الْمُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِ الدُّنْيَا

- وَالدِّينِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الْحَج: ٤٦» ١٤٨
- بيان معنى العمى والعمه ١٤٨
 - سُكْرُ الْهَوَىٰ وَصَرَعُ الْعَاشِقِينَ ١٥٠
 - «ثلاثة قواعد من عندي خارج الداء والدواء تدور في فلكه» ١٥٢

القاعدة الحادية والعشرون

- «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ» ١٥٢

القاعدة الثانية والعشرون

- «بُغْضُكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ» ١٥٥

القاعدة الثالثة والعشرون

- «بلغنا أَنَّ الشَّهْوَةَ وَالْهَوَا يَغْلِبَانِ الْعِلْمَ وَالْعَقْلَ وَالْبَيَانَ» ١٥٧

القاعدة الرابعة والعشرون

«حَقِيقَةُ الْعِبُودِيَّةِ لَا تَحْصُلُ مَعَ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ فِي الْمَحَبَّةِ، فَالْمَحَبَّةُ لِلَّهِ مِنْ لَوَازِمِ الْعِبُودِيَّةِ وَمُوجِبَاتِهَا وَمُقْتَضِيَّاتِهَا، وَالْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ تَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ، وَخَاصِيَّةَ التَّعْبُدِ الْحَبِّ مَعَ الْخُضُوعِ وَالْإِنْقِيَادِ وَالذَّلِّ لِلْمَحْبُوبِ، فَمَنْ أَحَبَّ مَحْبُوبًا وَخَضَعَ لَهُ تَعْبُدَ قَلْبَهُ لَهُ، بَلِ التَّعْبُدُ أَحَدُ مَرَاتِبِ الْحَبِّ، وَمَنْ لَوَازِمِ الْمَحَبَّةِ مَحَبَّةٌ مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَبْغِضُ مَا يَبْغِضُهُ اللَّهُ، فَتَكُونُ الْمَحَبَّةُ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى أَمْرِ اللَّهِ

- وَرَسُولُهُ ﷺ» ١٥٩

- الميزان الذي يُعرف به من أَحَبَّ اللَّهَ حَقًّا وَصِدْقًا وَإِخْلَاصًا ١٥٩

القاعدة الخامسة والعشرون

- «الدين دينان: دين شرعيٍّ أمريٍّ، ودين حسابيٍّ جزائيٍّ، وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمراً أو جزاءً والمحبة أصل كل واحد من الدينين وكلاهما صراطه المستقيم سبحانه في أمره ونهيهِ، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره» ١٦٦
- معنى الدين وأصله ١٦٦

القاعدة السادسة والعشرون

- «دواعي محبة الله: الجمال والجلال المطلق، ولكمال نعيم القلب: كمال المحبوب في نفسه وجماله وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه، وكمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار قربه والوصول إليه بكل شيء، والولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يوالِيهم بمحبته لهم» ١٧٢

القاعدة السابعة والعشرون

- «أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شَفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ» ١٧٩
- الداء والدواء، فإنما العلم أعظم الشفاء ١٨٠

القاعدة الثامنة والعشرون

- «مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصليين: فساد العلم، وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما: الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها» ١٨٢
- فصل: في بيان اشتغال الفاتحة على الشفاءين، شفاء القلوب، وشفاء الأبدان ١٨٢
- تركيب الدواء من ستة أجزاء ١٨٤
- القلب يُعرض له مرضان عظيمان ١٨٤

القاعدة التاسعة والعشرون وخاتمة القواعد ولوازمها

- «لا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصليين عظيمين، أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وبني ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ ﴿ على أربع قواعد: التحقيق بما يحبه الله ويرضاه من قول اللسان والقلب،
وعمل القلب والجوارح، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها،
﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما،

١٨٦

وسلوك طريق السالكين إلى الله بها»

١٩٠

• هذه القاعدة الكبرى في الشفاء، فإنَّ كمال التوحيد أصله البناء

١٩١

• «فهرس الكتاب»

